ملامح التلقي من خلال تعريفات القدماء للبلاغة

أ. د. عبد الرحيم الرحموني

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - ظهر المهراز

جامعة محمد بن عبد الله - فاس - المغرب

تقديم

إن بلاغة المنطق أو الكلام في تراثنا النقدي والبلاغي لا تقتصر على المتكلم، بل تتعداه لتشمل المتلقي أيضا. وإذا كان السمع هو الأداة الرئيسية للتلقي في مرحلة ما قبل التدوين، فإن تأكيد أهمية هذه الحاسة وإبراز مسؤوليتها فيما يتم إدراكه عن طريقها بارز في أكثر من نص. وقد ذكر العلماء قديما أن السمع أول حاسة تشتغل عند الإنسان، اعتمادا على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[1]، قال ابن كثير: " ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار التي بها يحسون المرئيات، والأفئدة: وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ. والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلاً قليلاً، كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده"[2]. ومن ثم كان السمع مقدّما

---

(١) سورة النحل. الآية:٧٨. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾. سورة المؤمنون. الآية: ٧٨. وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩﴾ السجدة الآية: ٩: وقوله جل وعلا: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٢٣﴾ سورة الملك. الآية: ٢٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٧٠.

في الذكر والمسؤولية على الحواس الأخرى، كما يبدو واضحا من خلال قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[1]. ولهذا قال أبو الدرداء: "أنصف أذنيك من فيك، فإنما جُعل لك أذنان اثنان وفم واحد، لتسمع أكثر مما تقول"[2].

ولعل ما كان من ديدن زعماء المشركين منذ بداية تنزّل الوحي من الصدّ عن الاستماع للقرآن الكريم، حتى ولو كان مجرد استماع، يأتي من إدراكهم أن الاستماع إلى الكلام الجميل يؤثر لا محالة في المتلقي، قياسا على ما كان من استماعهم للشعر وتلقيهم له، لذا منعوا عامة الناس من الاستماع إلى القرآن الكريم، وحتى إذا ما تم الاستماع إلى شيء معين فينبغي التشويش على ما تم الاستماع إليه حتى لا يستقر سليما في الإدراك؛ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[3] . ومعناه كما يقول ابن كثير: إنهم "تواصوا فيما بينهم أن لا يطيعوا للقرآن، ولا ينقادوا لأوامره، {وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ} أي: إذا تلي لا تسمعوا له، كما قال مجاهد. والغوا فيه، يعني: بالمكاء والصفير، والتخليط في المنطق على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن، وكانت قريش تفعله. وقال الضحاك عن ابن عباس: {وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ} عيبوه، وقال قتادة: اجحدوا به، وأنكروه وعادوه {لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}، هذا

(١) سورة الإسراء. الآية: ٣٦

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه. ٢/ ٤٧٢.

(٣) سورة فصلت. الآية : ٢٦.

حال هؤلاء الجهلة من الكفار ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن. وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بخلاف ذلك، فقال تعالى﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[1]"[2]. لأن الاستماع والإنصات إلى القرآن الكريم في حد ذاته خطوة أولى في طريق التعبد به وازدياد الإيمان بالنسبة للمؤمن، أو الاقتناع به ثم الإيمان به واتباعه بالنسبة لغير المؤمن.

ومن هنا كان تأكيد القرآن الكريم أن من صفات المؤمنين الاستماع إلى القول والعمل به، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾[3]؛ لأن من صفاتهم أن يستمعوا القول فيتبعون أحسنه. على عكس من سبق من أهل الكتاب الذين حرفوا ما أنزل إليهم واشتهروا بالعصيان والجحود، فقال جل ذكره عنهم: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾[4]. كما حذر تعالى المؤمنين من الوقوع فيما وقع فيه المشركون، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[5]. إلى غير ذلك من الآيات التي يمكن أن يستخلص منها بصورة عامة أن للتلقي أهمية كبرى في الإدراك الحقيقي لمدلول الخطاب.

---

(١) سورة الأعراف. الآية : ٢٠٤.

(٢) تفسير ابن كثير. ٤/ ٩٨.

(٣) سورة البقرة. الآية : ٢٨٥.

(٤) سورة البقرة . الآية: ٩٣.

(٥) سورة الأنفال. الآية ٢١.

ولقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنته القولية والفعلية حسن الاستماع إلى المتكلم أيّا كان موقعه ومقامه، ففي الحديث المشهور: "نضر الله امرأ سمع مني حديثًا فأداه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع"[1]. وهو يدل على أن السامع قد يكون على درجة عليا من الوعي والإدراك والقدرة على الاستنباط. ويعزز هذا الحديثَ الحديثُ الآخر الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: "إذا قلت لصاحبك أنصت والإمام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت".[2] الذي يشير بكل وضوح إلى ضرورة حسن الاستماع إلى الخطيب يوم الجمعة وعدم إدخال أي شيء يمكن أن يشوش على هذا الاستماع، حتى ولو كان ذلك الشيء تنبيها للآخر إلى هذا الاستماع؛ لأن تنبيهه يكون، في الغالب، نتيجة ملاحظته أن هذا الآخر لا يستمع، ولن تتم هذه الملاحظة إلا بنوع من الشرود عن الاستماع من قبل المنبه، سيما وأن عدم الاستماع لا يكون في الغالب إلا من قبل الجهال، كما ذكر ذلك ابن حجر في تفسيره لهذا الحديث.

---

(١) صحيح ابن حبان ١/ ٢٦٨ و ١/ ٢٧١. وذكر المحقق الشيخ شعيب الأرناؤوط أن إسناده حسن، وله طرق أخرى كثيرة في الصحاح والمجاميع.

(٢) موطأ الإمام مالك . حديث رقم ٢١٤ . والحديث أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما. كما أخرج البخاري وغيره أن عثمان بن عفان، رضي الله عنه، كان يقول على المنبر: "المنصت الذي لا يستمع للخطيب، له من الأجر مثل المنصت الذي يسمع". مما يعني أن الإنصات واجب حتى ولو كان المستمع لا يسمع صوت الخطيب.

وربما كان تذكير السامعين بضرورة الاستماع إلى الخطيب أمرا معروفا عند العرب قبل الإسلام، حيث نجد نصوصًا تفيد أن هناك من كان يقوم بين يدي الخطيب يذكر الناس وينبههم إلى ضرورة الاستماع. روى ابن هشام في سيرته، "أن عبد الله بن أبي بن سلول كان له مقام يقومه كل جمعة لا ينكر شرفا له في نفسه وفي قومه، وكان فيهم شريفا، إذا جلس فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وهو يخطب الناس، قام فيهم فقال: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزكم به، فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس. حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع، ورجع بالناس، قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه، وقالوا: اجلس أي عدو الله لست لذلك بأهل، وقد صنعتَ ما صنعت. فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قلت بجرا أن قمت أشدد أمره.."[1].

وفي السيرة النبوية لابن إسحاق ما يدل على أن الاستماع للآخر واجب، ومبدأ حضاري وأخلاقي حتى وإن كان هذا الآخر معاديا. فلقد ذكر ابن إسحاق أن عتبة بن ربيعة لما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم في مفاوضته المشهورة له قال: "وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ... فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك أن تقبل منها بعضها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قل يا أبا الوليد أسمع، فقال يا بن أخي إن

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٦٩ .

كنت إنما تريد بما جئت من هذا القول .... حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاستمع مني، قال: أفعل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بسم الله الرحمن الرحيم (حم. تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً...) فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت له، وألقى بيده خلف ظهره معتمداً عليها يستمع منه حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة فسجد فيها، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ فقال: ورائي، إني والله قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط،... فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ،..."[1]. وتكرار لفظ الاستماع في هذا النص أكثر من مرة، وبالنظر إلى ما أفضى إليه، يدل على أن الاستماع الواعي يؤدي دائما إلى نتائج إيجابية. كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم، روي عنه أنه كان إذا استمع إلى شخص التفت إليه بأجمعه إشعارا له بأنه مستمع إليه ومنتبه لما يقوله ومقدر لمكانته باعتباره محدثا له. وربما كان حسن استماعه صلى الله عليه سلم دافعا لعتبة إلى إحسان سمعه هو الآخر، ثم تأثره بعد ذلك بما سمع.

(١) سيرة ابن إسحاق: ص: ١٨٧ ـ ١٨٨.

ومعلوم أن الاستماع المقصود هذا ليس هو ذلك الاستماع العابر الذي يمكن أن يحدث دون أخذ بعين الاعتبار للمتكلم، وإنما هو ذلك الاستماع الذي يعيه القلب ويدركه العقل، إنه ذلك الاستماع بكل ما تعني الكلمة من معنى، حتى يقود إلى التأمل والتدبر. ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[1]. قال ابن كثير: "{لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ} أي لب يعي به. وقال مجاهد: عقل، {أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} أي استمع الكلام فوعاه وتعقله بعقله، وتفهمه بلبه. وقال مجاهد: {أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ}، يعني: لا يحدث نفسه في هذا بقلب، وقال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه إذا استمع بأذنيه، وهو شاهد بقلب غير غائب"[2]. أما الاستماع اللاهي الذي يكون بالآذان دون وعي أو إدراك فهو من صفات العابثين غير الجادين، ولذلك وصف الله تعالى به المشركين قائلا: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾[3]. قال القرطبي:"قوله تعالى:{ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ } أي ساهيةً قلوبهم، معرضةً عن ذكر الله، متشاغلةً عن التأمل والتفهم؛ من قول العرب: لَهَيْتُ عن ذكر الشيء إذا تركتَه وسلوتَ عنه"[4] كما جعلهم تعالى في آية أخرى صما بُكما

(١) سورة ق . الآية : ٣٧.

(٢) تفسير ابن كثير. ٤ / ٢٢٩

(٣) سورة الأنبياء. الآيتان: ٢ و ٣.

(٤) تفسير الجامع لأحكام القرآن. للقرطبي. ١١ / ٢٦٨.

عميا لا يعقلون وذلك في قوله عز وجل: ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾[1]، لأن منافذ الإدراك وفي مقدمتها السمع قد عطلت وسدت وفسدت عليهم كما قال ابن القيم رحمه الله[2]. ولعله لهذا السبب قال الحسن البصري: "إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن القول..". وكان يقال: "أول العلم الصمت، والثاني الاستماع، والثالث الحفظ، والرابع العمل به، والخامس نشره"[3]. وكانت الحكماء تقول: "رأس الأمر كله حسن الفهم والتفهم والإصغاء إلى المتكلم".

كل هذا وغيره كثير يدل بشكل واضح على أن الاهتمام بالتلقي في تراثنا الحضاري قديم ومتأصل، ويتجلي في جميع النصوص، بدءا من النصوص الشرعية، ومرورا بالنصوص البلاغية والأدبية والنقدية، ذات الصلة بالتأثير والإقناع والخطابة والحجاج والمناظرات والمحاورات، وانتهاء بالنصوص اللغوية ذات الصلة بقضايا التواصل والتخاطب بشكل عام.

---

(١) البقرة. الآية ١٨، وكذلك في قوله عز وجل: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١ ﴾ البقرة. الآية ١٧١

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ٨٨.

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٩٨.

وإذا كانت البلاغة العربية – بمفهومها العام – ترتكز فيما ترتكز عليه، على الأخذ بعين الاعتبار مقام المتلقي، فإن هذا المتلقي سيحظى بكل تأكيد بأهمية واضحة بما في ذلك في التعريفات التي قدمها القدماء للبلاغة.

على أن هذا البحث لا يروم إسقاط معطيات "نظرية التلقي" الحديثة على النصوص التراثية العربية، وخاصة النصوص المعرِّفة للبلاغة، أو قراءة هذه النصوص في ضوء هذه النظرية، وإنما الهدف هو إبراز "موضوع" التلقي وبيان أهميته وقضاياه وتميزه عن "نظرية التلقي" الحديثة. ولقد تم اعتماد تعريفات القدماء للبلاغة انطلاقا من الاعتبارات التالية:

- أن موضوع التلقي – بمفهومه العام – يتجلى بشكل واضح في النصوص التراثية تنظيرا وتطبيقا، وخاصة في النصوص ذات الصلة بالبلاغة، بالمفهوم الذي تم اعتماده في هذا البحث.
- أن المفهوم الأصيل للبلاغة لا يرتبط، فقط، بإجادة بنيات النص المعجمية والتركيبية، كما قد يفهم من التقعيدات البلاغية التي أرساها المتأخرون من المهتمين بالدراسات البلاغية، وسار على نهجها المحدثون، ولا بتحقيق شروط معينة في المنتج، ولكن أيضا باستحضار شخصية المتلقي الذي يوجه إليه الخطاب، والتي يتقاسم مسؤولية إدراك هذه الجمالية مع منتج النص.
- وبناء على ذلك فإن الحديث عن موضوع التلقي في التراث، وخاصة في نصوص تعريفات البلاغة ينطلق من أصالة هذا الموضوع

وبروزه وظهوره بشكل لافت للنظر، وليس بدافع تطبيق "نظرية التلقي" على هذه النصوص.

- وعلى هذا الأساس فإن هذا البحث المتواضع يهدف إلى لفت الانتباه إلى القضايا التي يثيرها موضوع التلقي في التراث – وتعريفات القدماء للبلاغة جزء من هذا التراث –، وهي قضايا تختلف عن قضايا "نظرية التلقي" الحديثة، أصلا ومنطلقا، رؤية وتصورا، هدفا وغاية، زمانا ومكانا، وإن التقت معها في بعض الجوانب اصطلاحا ومفهوما.

تعريفات القدماء للبلاغة:

البلاغة لغة:

ترجع مادة (بلغ) في المعاجم إلى الوصول والانتهاء. وأوجز ما لهم في ذلك قول ابن فارس: "الباء واللام والغين: أصل واحد، وهو الوصول إلى الشيء"(١). وأدق ما لهم قول الراغب: "البلوغ والبلاغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى، مكانا كان أو زمانا، أو أمرا من الأمور المقدرة"(٢). ومن ثم جاءت عندهم كلمة: "البلاغة التي يمدح بها الفصيح اللسان لأنه يبلغ بها

(١) مقاييس اللغة. لابن فارس / بلغ

(٢) المفردات في غريب القرآن. للراغب الإصهفاني/ بلغ. جاء في لسان العرب: "بَلغَ الشيءُ يَبْلُغُ بُلُوغاً وبَلاغاً: وصَلَ وانْتَهَى، وأَبْلَغَه. وتَبَلَّغَ بالشيء: وصَلَ إِلى مُرادِه. (لسان العرب. لابن منظور/ بلغ)

ما يريده"[١]. أو التي "هي إيصال المعنى إلى النفس في أحسن صورة"[٢]. وكلمة البليغ الذي هو :"الفصيح الذي يبلغ بعبارته كنه ضميره ونهاية مراده"[٣]. وغير ذلك من المشتقات المستعملة مجازاً"[٤].

وفي الاصطلاح:

أشهر معنى اصطلاحي للبلاغة في المعاجم هو الفصاحة، إلا معاجم الاصطلاحات، فإنها اقتصرت أو كادت على تعريف القزويني المشهور[٥] لتأخرها. وانفرد الراغب بهذا التحديد: "البلاغة تقال على وجهين: أحدهما: أن يكون بذاته بليغاً وذلك بأن يجمع ثلاثة أوصاف: صوابا في موضوع لغته، وطبقا للمعنى المقصود به، وصدقا في نفسه. ومتى اخترم وصف من ذلك كان ناقصا في البلاغة. والثاني: أن يكون بليغاً باعتبار القائل والمقول له، وهو أن يقصد القائل أمرا فيرده على وجه حقيق أن يقبله المقول له[٦]"[٧].

---

(١) مقاييس اللغة. لابن فارس / بلغ.

(٢) الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري . ص: ٥٦.

(٣) تاج العروس / بلغ.

(٤) مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبين للجاحظ. ص: ٨٨ ـ ٨٩

(٥) وهو "البلاغة في الكلام: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته.. وفي المتكلم ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ" (التلخيص. ص: ٣٣ ـ ٣٦).

(٦) المفردات في غريب القرآن. للراغب الإصهفاني/ بلغ.

(٧) نقلا عن كتاب: مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبين للجاحظ. ص: ٨٩

وقريب من هذا ما ورد عند المظفر بن الفضل العلوي حينما قال: "البلاغةُ هي الفصاحة. يُقالُ بلُغَ الرّجلُ بضم اللامِ فهو بليغٌ، ولا فرقَ بين البلاغة والبيان إلا في اللّفظِ"(١). وفي الكشاف: "بلاغة الكلام، وتسمى بالبراعة والبيان والفصاحة أيضا، وهي: مطابقة الكلام لمقتضى الحال"(٢) فجمعا بين مفهوم البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة في سياق واحد.

وعرفها الشريف الجرجاني بقوله: "البلاغة في المتكلم: ملكة يقتدِر بها إلى تأليف كلام بليغ، فعلم أن كل بليغ، كلاماً كان، أو متكلماً، فصيحِ، لأن الفصاحة مأخوذة في تعريف البلاغة، وليس كل فصيح بليغاً. وفي الكلام: مطابقته لمقتضى الحال. والمراد بالحال: الأمر الداعي إلى التكلم على وجه مخصوص مع فصاحته، أي فصاحة الكلام"(٣).

وواضح من خلال عدد من التعريفات السابقة أنها تشير إلى المفهوم الذي نحن بصدده، وهي تلك الملكة أو القدرة على إبداع كلام جميل مؤثر في المتلقي.

ومن طريف التعريفات ما قدمه المظفر بن الفضل العلوي في نضرة الإغريض، حيث قلّب جذر "بلغ" على نواحيه الأربعة: بلغ، وغلب،

(١) نضرة الإغريض في نصرة القريض ، للمظفر بن الفضل العلوي. ص: ١٧ .
(٢) كشاف اصطلاحات الفنون./ بلغ
(٣) التعريفات للشريف الجرجاني / بلغ

ولغب، وبغل، ووجدها جميعا راجعة إلى القوة والقدرة، مما يعني أن البلاغة قوة خاصة وقدرة ذاتية في المتكلم، فقال:

"وأقول أنا: إن تركيبَ (ب ل غ) معناه إدراك ما يحاولُه الإنسان عن قوّة، وتمكُّنٍ من قدرةٍ. فمن ذلك بلَغْتَ الأمرَ والغرَضَ: إذا وقفتَ على غايتِه، وأشرفتَ على نهايتِه، ولولا قوّتُك عليه لما وصلتَ إليه. ومن ذلك البلاغةُ، فإنّك إذا وقفتَ على غاياتِ الكلام ونهايات المعاني، دلّ ذلك على قُدرتِكَ في الأدب وتمكّنِك من لُغةِ العرب. فإنْ أوْجَزْتَ أو أسهبتَ كنتَ فيه بليغاً وكان ما أتيتَ به بلاغةً. ومن ذلك: (غ ل ب)، فإنّ الغَلَب لا يكون إلا عن قوة وتمكّن وقُدرة. ومن ذلك (ل غ ب) اللُّغُوبُ: هو التعبُ، ولا يكون ذلك إلا عن دأبٍ وشدةِ حركة تدلُ على قوّةٍ وقدرةٍ على الحركات، وتمكنٍ من السعي العنيفِ في سائرِ الأوقات. ومن ذلك: (ب غ ل)، يقالُ: بغّلَ الفرسُ إذا سارَ بين العَنَق والهَمْلَجَة، ومنه التبغيلُ وهو مشْيٌ سريعٌ فيه اختلافٌ ولا يكون ذلك إلا عن قوة وقدرةٍ على السّعي"[1].

ولقد عرف مفهوم البلاغة تطوراً في معناه منذ أن ظهر على ألسنة البلغاء والبيانيين، وإذا كان هذا التطور يحتاج إلى دراسة مصطلحية وصفية تاريخية، تبدأ بظهور المصطلح، وتنتهي باستقراره بشكل علمي مقنن على يد السكاكي، فإن المراد من هذا البحث المتواضع الوقوف عند التعريفات التي قدمت للبلاغة قبل أن تستقر في قوالب محددة مضبوطة وأبواب

(١) نضرة الإغريض في نصرة القريض ، للمظفر بن الفضل العلوي. ص: ١٩ ـ ٢٠

معروفة مقننة. تلك التعريفات التي صيغت في أغلبها على ألسنة البلغاء – وليس البلاغيين – بمعنى أنها تعريفات تنطلق من معدن النص البليغ وجوهره وتعتمد على منظور تطبيقي وعملي لمفهوم البلاغة، أي أنها تعريفات تنطلق من واقع التلقي شكلا ومضمونا، إبداعا وتلقيا. ذلك أن البليغ يؤسس بلاغة قوله بالنظر إلى مقام المتلقي، فرداً كان أم جمهوراً، ومن ثم تأتي صياغة هذا القول، مبنىً ومعنى وتقسيما، فيكون إيجازاً أو أطناباً، حذفاً أو ذكراً، تلميحاً أو تصريحاً، حسب مقدار فهم المتلقي وإدراكه.

ومن اللافت للنظر أن أهم هذه النصوص المعرفة للبلاغة وردت في كتاب "البيان والتبيُّن"(١) للجاحظ، ونقلها عنه بعد ذلك – فيما يبدو- جل

(١) تم اعتماد عنوان كتاب الجاحظ "البيان والتبيُّن" بهذه الصيغة لعدة أسباب ومنطلقات منها:

– أن ضبط عنوان الكتاب بهذه الصيغة المعتمدة في البحث (البيان والتبيّن) قد تم ضبطه وتحقيقه منذ سبعينات القرن الميلادي الماضي، من قبل الباحث المحقق شيخ المصطلحيين بالمغرب الأستاذ الدكتور الشاهد البوشيخي، ونشر هذا الضبط بعنوان "قضية عنوان البيان" في مقدمة كتابه "مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيّن للجاحظ"، كما نشر مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق.

– أن إثبات عنوان الكتاب بالصيغة المعتمدة في البحث "البيان والتبيّن" مع اعتماد تحقيق هارون قد تم من قبل العديد من كبار الباحثين، وفي مقدمتهم الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي، والأستاذ الدكتور الشاهد البوشخي في كتابه السالف الذكر.

– أن اعتماد البحث بهذه الصيغة "التبيّن" هو أنسب و"أحسن خلاصة لفكر أبي عثمان في "البيان" وأنها – بالنظر إلى مضمون الكتاب، والتصور الأساسي الذي قام عليه – أصدق عنوان". (مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيّن للدكتور الشاهد البوشيخي ص ٤٤ – ٤٥)

المؤلفين والدارسين الذين جاؤوا من بعد. ولا عجب في ذلك فإن الجاحظ هو أول مؤسس لنظرية البيان العربي، وأول مقعد لموضوع التلقي، حينما أفرده بمصطلح خاص في عنوان كتابه: "البيان والتبيُّن". وإذا كان "البيان" يرتبط بالنص في علاقته بقائده فإن "التبيُّن" يرتبط بالنص في علاقته بمتلقيه، إذ ليس "التبيُّن" سوى التلقي في صورته الجمالية العليا.

وإذا ما تتبعنا هذه النصوص، فإنه يمكن تصنيفها من حيث التلقي إلى جانبين اثنين كبيرين:

١- التلقي وعلاقته بالبلاغة.

٢- بلاغة الخطاب بين المتلقي والمتكلم.

وفيما يلي بعض التفصيل لهذين الجانبين.

١- التلقي وعلاقته بالبلاغة:

يستوقف الدارس المتتبع لنصوص تعريفات البلاغة ثلاثة نصوص بارزة تربط التلقي بالبلاغة ربطا مباشرا، تجعله إما وجها من وجوهها أو هي بذاتها. أول هذه النصوص: تعريف ابن المقفع، وثانيها: التعريف الذي ورد في الصحيفة الهندية، وثالثها: قول سهل بن هارون.

النص الأول: تعريف ابن المقفع للبلاغة:

لعبد الله بن المقفع تعريف طريف للبلاغة، حيث إنه أدخل فيها عدة وجوه لا تبدو في ظاهرها أن لها علاقة بالبلاغة، حتى قال الراوي بسبب غرابة التعريف: " لم يفسِّر البلاغَة تفسيرَ ابنِ المقفَّع أحدٌ قَطُّ". ثم قال بعد ذلك: "سُئِل ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسمٌ جامعٌ لمعانٍ تجري في وجوهٍ كثيرة، فمنها ما يكون في السُّكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سَجعْاً وخُطباً، ومنها ما يكون رسائل، فعامّةُ ما يكون من هذه الأبواب الوحيُ فيها، والإشارةُ إلى المعنى، والإيجازُ هو البلاغة، فأمّا الخُطَب بين السِّماطَين، وفي إصلاح ذاتِ البَين، فالإكثارُ في غير خَطَل، والإطالةُ في غير إملال، وليكن في صدر كلامك دليلٌ على حاجتك، كما أنَّ خيرَ أبياتِ الشعر البيتُ الذي إذا سمِعْتَ صدْرَه عرَفْتَ قافيتَه كأنّه يقول: فرِّقْ بينَ صدر خطبة النكاح وبين صَدْر خُطْبة العيد، وخُطبة الصُّلْح وخُطبة التّواهُب، حتَّى يكونَ لكل فنٍّ من ذلك صدرٌ يدلُّ على عَجُزِه؛ فإنّه لا خيرَ في كلامٍ لا يدلُّ على معناك، ولا يشير إلى مَغْزَاك، وإلى العَمود الذي إليه قصدتَ، والغرضِ الذي إليه نزَعت، قال: فقيل له: فإنْ مَلَّ السامعُ الإطالةَ التي ذكَرْتَ أنّها حقُّ ذلك الموقِف؟ قال: إذا أعطَيْتَ كلَّ مَقامٍ حَقَّه، وقمتَ بالذي يجبُ من سياسة ذلك المقام، وأرضيْتَ من يعرف حقوقَ الكلام، فلا تهتمَّ لما فاتَكَ من رضا

الحاسد والعدُوّ؛ فإنّه لا يرضيهما شيءٌ، وأمّا الجاهلُ فلستَ منه وليس منك، ورِضَا جميعِ النَّاس شيءٌ لا تنالُه، وقد كان يُقال: رضا النَّاسِ شيءٌ لا يُنال[1]"

وواضح جدا أن الاستماع والسكوت – كيفما كان مقام السكوت – يرتبطان بالتلقي بشكل واضح، فالاستماع هو التلقي، والسكوت – وليس الصمت – لا يكون إلا بعد حسن التلقي، أو لنقل هو درجة من درجات التلقي / الاستماع. وقد جعلهما معاً ابن المقفع في مقدمة البلاغة، قبل بلاغة المنطق على اختلاف أشكاله النظمية ومستوياته الأسلوبية.

إن بلاغة الاستماع التي يقصدها ابن المقفع هي التي يشير إليها من خلال ما ورد في آخر النص، حيث يبدو وكأنه يريد ذلك المستمع / المتلقي المتميز، وليس أي متلق كيفما كان مستواه الإدراكي والثقافي والعلمي، إنه المتلقي الذي "يعرف حقوق الكلام" وحقوق الكلام ما يتطلبه المقام من حصول الإفهام من قبل المتكلم والتفهم من قِبل المتلقي. وفي المقام البلاغي "البيان" من قبل المخاطِب و"التبيّن" من قبل المتلقي. على أن السامع إن كان عاقلا فإنه لا بد له من أن يفهم مهما كان الأمر. يكفي أن يكون حاضر الذهن. ولذلك قال "صالح المُرِّيّ: سوءُ الاستماع نفاق، وقد لا يَفهم المستمع إلا بالتفهُّم، وقد يتفهَّم أيضاً مَن لا يفهم... والمَثَلُ السائرُ على وجه

(١) البيان والتبين للجاحظ ١ / ١١٥ـ١١٦

الدهر قولهم: العِلْمُ بالتعَلُّم"[1]. وأما الجاهل "فلست منه وليس منك"، وأما الحاسد والعدو فليس من طبيعته تفهم ما يلقى إليه حتى وإن كان هذا الإلقاء حقا كل الحق لا يدانيه ولا يشوبه أي باطل.

وكأني بابن المقفع، وهو يُعرّف المتلقي / البليغ بمن "يعرف حقوق الكلام" يرمي إلى ما نبه عليه الأسلوبيون المحدثون حينما تحدثوا عن القارئ المتميز أو الاستثنائي، "إنه القارئ الحصيف "المتميز الذي يعرف على نحو مثالي ثلاثة أشياء: يعرف نوع التراكيب التي تمتلكها اللغة، ويعرف نوع الخصائص التي يتوقع أن تكون لها دلالة أسلوبية، ويعرف نوع السياق الذي ترتبط به سمات خاصة، كما يمتلك تقنيات استنباط هذه السمات بطريقة منهجية، أي أنه قارئ ذو كفاءة أسلوبية عالية له خبرة طويلة بالأساليب[2]. بمعنى أنه قارئ بليغ بالدرجة الأولى. وإذا كانت بعض الاتجاهات الأسلوبية وخاصة تلك التي عنيت بقضية القارئ المتميز أو الاستثنائي مقدمة لظهور نظرية التلقي الحديثة علمنا مقدار قيمة قول ابن المقفع عن المتلقي (البليغ أو الاستثنائي) بأنه هو الذي يعرف حقوق الكلام.

ومما يؤكد هذا أن حديث ابن المقفع عن المتلقي الذي "يعرف حقوق الكلام" جاء في سياق حديثه عن خطب إصلاح ذات البين، وهي الخطب

---

(١) المصدر السابق ٢ / ٤٢

(١) دراسات أسلوبية في التراث. د. محمد بوحمدي ـ د. عبد الرحيم الرحموني. ص: ٧٢ ـ ٧٣

التي عرفت عند الخطباء البلغاء، ثم عند البلاغيين بعد ذلك بأنها تتسم من حيث بناؤها بالإكثار في غير خطل، وبالإطالة في غير إملال، كما قال ابن المقفع. ويستدلون على ذلك بما قاله الخطيب الجاهلي قيس بن خارجة حينما سئل عما عنده في شأن حمالة داحس والغبراء، وإصلاح ذات البين بين المتخاصمين، قال: "عندي قِرى كلِّ نازل، ورِضا كلِّ ساخط، وخطبةٌ من لدُن تطلُع الشّمس إلى أن تغرُب، آمُرُ فيها بالتّواصلُ وأنْهَى فيها عن التَّقاطُع، قالوا: فخطب يوماً إلى اللّيل فما أعادَ فيها كلمةً ولا معنىً. فقيل لأبي يعقوب: هلاَّ اكتَفَى بالأمر بالتَّواصُل عن النَّهي عن التَّقاطع؟ أوَ ليس الأمرُ بالصّلَة هو النَّهيُ عن القطيعة؟ قال: أو ما علِمْتَ أنّ الكنايةَ والتعريض لا يعملانِ في العقول عملَ الإفصاح والكَشْف[1]".

وخطبة طويلة من هذا القبيل التي تستغرق بياض يوم بأكمله، لا يمكن أن تتم إلا بوجود ذلك المتلقي الذي "يعرف حقوق الكلام" وحقوق المقام. ذلك لأن المتحدث خطيب بليغ عارف هو الآخر بحقوق الكلام، فلم يُعد – على طول خطبته – كلمة ولا معنى، والتجأ إلى الإفصاح عوض الكناية والتعريض، حتى لا يترك للمتلقي الحصيف أي مهرب من الاقتناع بقوله. هذا فضلا عن أن المقام هو مقام إصلاح ذات البين، ومن ثَم لا ينبغي على هذا المتلقي / البليغ أن يكون غير مهتم لما يلقى إليه، لأن مصلحته الآنية والآتية ستحسم في هذا المقام؛ فإما إصلاح ذات

(١) البيان والتبين للجاحظ ١ / ١١٧

البين، وما يؤدي إليه من حمالة الدماء وترك التباغض والتقاطع، وإما تدابر يؤدي إلى المزيد من التناحر. أما الجاهل بمزايا الصلح، والعدو لالتئام شمل الناس وجمعهم، والحاسد لذلك فإن رضاه محال. ولذلك قالوا: "رضا الناس شيء لا ينال".

ومن الواضح أنه كلما كانت هناك مصلحة للمتلقي السامع – كيفما كان نوع هذه المصلحة – فإنه من الأكيد، إن كان عاقلا، ألا يترك أي كلمة تفوته، ومن ثم يُجمّع كل طاقاته للاستماع ولا يبالي أأطال المتحدث أم قصر. ومن هذا الباب يفسر – بلاغيا – ما جاء عن خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم الطويلة التي استغرقت بياض يوم بأكمله. روى الإمام مسلم في صحيحه، قال: "حدثني يعقوب بن إبراهيم الدورقي وحجاج بن الشاعر جميعاً، عن أبي عاصم قال حجاج: حدثنا أبو عاصم، أخبرنا: عزرة بن ثابت، أخبرنا: علباء بن أحمر، حدثني: أبو زيد يعني عمرو بن أخطب قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر، وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا"[1].

(١) صحيح الإمام مسلم . الحديث رقم: ٢٨٩٢. ٤ / ٢٢١٧. وقد ورد الحديث في عدد من كتب الصحاح وكتب السيرة والتاريخ.

وأكيد أن السامع المتلقي، مهما تدنت درجة تعقله، لا يمكن إلا أن يتابع خطبة من هذا القبيل، ويستمع إليها مهما طالت. ولهذا عقد الجاحظ مقارنة لطيفة بين الإنسان الجاهل وبين الحيوان، من حيث التلقي الذي يؤدي الإخلال بمتطلباته إلى الوقوع في ما لا تحمد عقباه، فقال: "وإذا كانت البهيمة إذا أحسَّت شيئاً من أسباب القانص، أَحَدَّتْ نظرَها، واستَفرغتْ قواها في الاسترواح، وجمعَتْ بالها للتسمُّع - كان الإنسانُ العاقلُ أوْلَى بالتثبت، وأحَقَّ بالتعرُّف"[1] فجعل البهيمة غير العاقلة التي من طبعها حسن التلقي بإدراكها مكامن الخطر، أعلى من الإنسان العاقل الذي ينبغي أن يقوده عقله إلى حسن التلقي ولكنه لا يفعل قياسا عل قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾[2]. ومن هنا اعتبر البعض سوء الاستماع نفاقا، كما ذهب إلى ذلك صالح المري في قوله السابق الذكر.

وربط حسن الاستماع / التلقي بالعقل، أو بالدرجات العليا من التعقل أمر وارد في العديد من النصوص. ومن النصوص الطريفة التي تقترب مما ورد في قول ابن المقفع ما ورد في كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، حيث قال: "وقال أبو سليمان: البلاغة ضروب: فمنها بلاغة

(١) البيان والتبين للجاحظ ٢ / ٤٢

(٢) الفرقان . الآية: ٤٤.

الشعر ومنها بلاغة الخطابة ومنه بلاغة النثر، ومنها بلاغة المثل، ومنها بلاغة العقل، ومنها بلاغة البديهة، ومنها بلاغة التأويل...".

وبعد أن ذكر المقصود من بلاغة الشعر و بلاغة الخطابة و بلاغة النثر وبلاغة المثل، قال:

"وأما بلاغة العقل فأن يكون نصيب المفهوم من الكلام أسبق إلى النفس من مسموعه إلى الأذن، وتكون الفائدة من طريق المعنى أبلغ من ترصيع اللفظ وتقفية الحروف، وتكون البساطة فيه أغلب من التركيب، ويكون المقصود ملحوظاً في عرض السنن، والمرمى يتلقى بالوهم لحسن الترتيب.

وأما بلاغة البديهة فأن يكون انحياش اللفظ للفظ في وزن انحياش المعنى للمعنى، وهناك يقع التعجب للسامع، لأنه يهجم بفهمه على ما لا يظن أنه يظفر به كمن يعثر بمأموله، على غفلةٍ من تأميله. والبديهة قدرةٌ روحانية، في جبلةٍ بشرية، كما أن الروية صورةٌ بشرية، في جبلةٍ روحانية.

وأما بلاغة التأويل فهي التي تحوج لغموضها إلى التدبر والتصفح، وهذان يفيدان من المسموع وجوهاً مختلفة كثيرةً نافعةً، وبهذه البلاغة يتسع في أسرار معاني الدين والدنيا، وهي التي تأولها العلماء بالاستنباط من كلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم في الحرام والحلال، والحظر والإباحة، والأمر والنهي، وغير ذلك مما يكثر؛ وبها تفاضلوا، وعليها

تجادلوا، وفيها تنافسوا، ومنها استملوا، وبها اشتغلوا؛ ولقد فقدت هذه البلاغة لفقد الروح كله، وبطل الاستنباط أوله وآخره، وجولان النفس واعتصار الفكر إنما يكونان بهذا النمط في أعماق هذا الفن؛ وها هنا تنثال الفوائد، وتكثر العجائب، وتتلاقح الخواطر، وتتلاحق الهمم، ومن أجلها يستعان بقوى البلاغات المتقدمة بالصفات الممثلة، حتى تكون معينةً ورافدةً في إثارة المعنى المدفون، وإنارة المراد المخزون"[1].

فابن المقفع (الأديب) قدّم في تعريفه للبلاغة ذكر ما يتعلق ببلاغة السكوت والاستماع، ثم ذكر بعد ذلك ما يتعلق ببلاغة النص، بينما قدم أبو سليمان (المنطقي) في تصنيفاته للبلاغة ما يتعلق ببلاغة النص، ليختم قوله بما يتعلق بما سماه ببلاغات العقل والبديهة والتأويل، وهي بلاغات تعتمد على حسن الفهم الذي يرتبط بدوره بحسن الاستماع، وتنطلق هذه البلاغات من بلاغة العقل التي تتميز بأن "يكون نصيب المفهوم من الكلام أسبق إلى النفس من مسموعه إلى الأذن، وتكون الفائدة من طريق المعنى أبلغ من ترصيع اللفظ وتقفية الحروف"؛ لتقف عند بلاغة البديهة التي يقع فيها "التعجب للسامع؛ لأنه يهجم بفهمه على ما لا يظن أنه يظفر به كمن يعثر بمأموله، على غفلةٍ من تأميله". إنه أفق التوقع للمتلقي وما يحدث له من تغيرات نتيجة جمالية الخطاب، لتنتهي عند بلاغة التأويل التي تعتبر القمة العليا للتلقي والتي "تحوج لغموضها إلى التدبر والتصفح، وهذان

(١) الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي. ٢/ ١٤٠ -١٤٣

يفيدان من المسموع وجوهاً مختلفة كثيرةً نافعةً". وبذلك فإن للاستماع درجة عليا في ميزان البلاغة على اختلاف أشكالها، وفي أعلى قممها، ويكون الرجلان، على اختلاف اهتمامهما، معا قد أكدا أهمية بلاغة التلقي، بموازاة مع قيمة بلاغة النص المسموع أو المكتوب.

وإذا كان السكوت سمة من سمات التلقي، وأحد ركائزه الأساسية، فإن الصمت ركيزة من ركائز الإرسال أو الكلام. ذلك أنه إذا كان السكوت مدعاة لحسن التلقي، كما سبق بيانه، فإن الصمت مدعاة إلى معرفة مقامات الخطاب، فالمتكلم البليغ لا يتكلم إلا إذا كان هناك دافع من دوافع التلقي، وقادر على إجادة الإرسال وتحقيق منفعة المتلقي دون الإخلال بسمات جمالية الخطاب، وإلا فإن لزوم الصمت أبلغ في عين المتلقي من الكلام، لأنه في هذه الحال يكون " الصمت أجود للمراد من النطق". كما قال أبو حيان التوحيدي(١). وعلى هذا الأساس فإنه في بعض المقامات يمكن أن يتضافر صمت المتكلم مع سكوت المستمع لتتم صناعة بلاغة فريدة من نوعها سواء على مستوى الإرسال أم على مستوى التلقي، ولذا قال بعض أهل الهند وهو يتحدث عن البلاغة: "جَماع البلاغة التماس حُسن الموقع، والمعرفةُ بساعات القول، وقلة الخَرَقِ بما التبَسَ من المعاني أو غَمُضَ، وبما شَرَد عليك من اللّفْظُ أو تعذّر، ثم قال: وزَينُ ذلك كلّه، وبهاؤُه وحلاوتهُ وسناؤُه، أن تكون الشّمائلُ موزونةً، والألفاظُ معدَّلةً،

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي. ١/ ٢٠٧

واللّهجة نقيَّة، فإنْ جامَعَ ذلك السنُّ والسمتُ والجمال وطولُ الصَّمت، فقد تَمَّ كلَّ التمام، وكمل كلَّ الكمال"(١). وربما أمكن من هذا الباب فهم الأثر الذي رُوي فيه أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال فيه: " إنّا مَعْشَرَ الأنبياء بِكَاءٌ"(٢). أي: "قليلو الكلام". فلقد سئل عمرو بن عبيد عن البلاغة، فقال: "ما بَلَغَ بك الجنّة، وعدَلَ بك عن النَّار، وما بصَّرَك مواقعَ رُشْدِك وعواقبَ غَيِّك. قال السائل: ليس هذا أريد. قال: مَن لم يُحسنْ أن يسكُتَ لم يُحسن أن يَستمِع. ومَن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول. قال: ليس هذا أريد. قال: قال النبي: إنّا مَعْشَرَ الأنبياء بِكَاءٌ. أي قليلو الكلام. ومنه قيل رجل بَكيءٌ، وكانوا يكرَهونَ أن يزيد منطِقُ الرجُل على عقْله. قال: قال السائل: ليس هذا أُريد. قال: كانوا يخافون مِن فِتنة القول، ومن سَقَطات الكلام، ما لا يخافون من فِتنة السكوت ومن سَقَطات الصمت.

(١) البيان والتبين للجاحظ. ١ / ٨٨ـ٨٩

(٢) لم أجد لهذا الحديث إسنادا ولا أثرا. وقد يكون موضوعا. ولقد أنكره الجاحظ، لأنه يتناقض مع صفات الرسول صلى الله عليه وسلم البلاغية، إذ لا يمكن – كما قال – أن يمدح صلى الله عليه وسلم البلاغة في أكثر من نص ثم يذمها في هذا القول. لكن ربما تكون دلالته – على الأقل من خلال السياق الذي ورد فيه عند عمرو بن عبيد – تشير إلى أهمية قلة الكلام في مقابل كثرة الكلام دون فائدة. خاصة وأنه صلى الله عليه وسلم عرف بجوامع الكلم، وانه ذم الإكثار من الكلام والتشادق فيه دون فائدة يجنيها المتلقي منها.

قال السائل: ليس هذا أُريد... "[1]. على أن التزام الصمت في العديد من المقامات يكون أدعى إلى رفعة الشخص من مكانته وتقديره، خاصة إذا كانت هيئته توحي بأنه ممن يحسن الكلام ويجيده. فلقد "أكثر رجل من سب الأحنف – وهو من هو بلاغة وفصاحة – وهو لا يجيبه، فقال الرجل: ويلي عليه! والله ما منعه من جوابي إلا هواني عليه"[2].

ومن هنا جعلوا السكوت أو الصمت أفضل درجات البلاغة حينما يتطلب المقام ذلك. فهذا جرير شاعر النقائض المشهور رد على العديد من مهجُويه، بينما التزم الصمت في مقامات أخرى، فكان صمته غلبة له وتغييبا لهم عن الساحة الأدبية. ولو رد عليهم لرفع من مكانتهم. قال ابن رشيق وهو يعقب على كلام ابن المقفع: " قال صاحب الكتاب: فهذا ابن المقفع جعل من السكوت بلاغة رغبة في الإيجاز وقال بعض الكلبيين:

واعلـــم بأن من السكوت إبانةً ومن التكلم ما يكون خبالا

وقلت أنا في نحو ذلك:

وأخرق أكّال للحم صديقـــه وليس لجاري ريقه بمُسيغ

---

(١) البيان والتبين الجاحظ. ١/ ١١٤ – ١١٥. وينظر عيون الأخبار لابن قتيبة. ٢/ ٥٦٧ – ٥٦٨. والسائل هو حفص بن سالم ، وهو وعمرو بن عبيد من أهل الاعتزال. وعمرو بن عبيد أحد كبار الزهاد المشهورين.

(٢) شرح نهج البلاغة بن أبي الحديد. ٥/ ٢٧٩

سكت له ضنّاً بعرضي ولم أجب ورُب جواب في السكوت بليغ"[١]

وقريب من هذا قول أبي سعيد السيرافي وقد سئل سؤالا في غير مقامه، فقال: " ما أحسن ما أدّبنا به بعض الموفّقين من المتقدّمين! فإنه قال:

وإذا خطَبْتَ عَلَى الرِّجال فلا تَكُن خَطِل الكلام تقُولُه مختالاً

واعلَم بأنّ السكوت لبابةً ومن التكلُّف ما يكون مُحالاً

والله يا شيخ لَعينك أكبر من قرارك، ولَمرآك أوْفى من دُخلتك، ولَمنشورك أبين من مطويّك؛ فما هذا الذي طوّعت له نفسك، وسدَّدَ عليه رأيك؛ إني أظن السّلامة بالسّكوت تعافُك، والغنيمة بالقول ترغب عنك. والله المستعان"[٢].

لكن لا بد أن نشير في المقابل إلى أنه إذا كان المقام يتطلب الكلام فإن السكوت يكون حينذاك عيا؛ ولذلك قال أحد الفلاسفة: "من كانت له حكمة أو أدب فلينطق به، فإن السكوت أولى بالجاهل من الأديب"[٣].

(١) العمدة لابن رشيق ١ / ٤٢٠.

(٢) أخلاق الوزيرين لأبي حيان التوحيدي. ص ٤١١

(٣) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار لمحمد بن عمر الزمخشري ١/ ٧٠٨

النص الثاني: تعريف البلاغة في الصحيفة الهندية:

جاء في كتاب البيان والتبيُّن ما يلي: "قال معمَّر، أبو الأشعث: قلت لبَهلْة: ما البلاغةُ عندَ الهند؟ قال بَهْلة: عندنا في ذلك صحيفةٌ مكتوبة، ... فلقيتُ بتلك الصحيفة التَّراجمةَ فإذا فيها: أوّل البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيبُ رابطَ الجأْش، ساكن الجوارح، قليلَ اللّحْظ، متخيَّر اللَّفْظ، لا يكلِّم سَيِّدَ الأمَة بكلام الأمَة ولا الملوكَ بكلام السُّوقة، ويكونَ في قُواه فضْلُ التصرُّف في كلِّ طبقة، ولا يدقِّق المعاني كلَّ التدقيق، ولا يُنقّحَ الألفاظ كل التنقيح، ولا يُصَفّيهَا كلَّ التّصفية، ولا يهذّبَها غاية التهذيب، ولا يفعلَ ذلك حتى يصادِفَ حكيماً، أو فيلسوفاً عليماً، ومَن قد تعوَّد حذف فُضول الكلام، وإسقاطَ مشتركاتِ الألفاظ، وقد نَظَر في صناعة المنطق على جهة الصِّناعة والمبالغة، لا على جهة الاعتراض والتصفُّح، وعلى وجه الاستطراف والتظَرُّف، قال: ومِن عِلْم حَقِّ المعنى أن يكون الاسمُ له طِبْقاً، وتلك الحالُ له وَفْقاً، ويكون الاسم له لا فاضلاً ولا مفضولاً، ولا مقصِّراً، ولا مشتركاً، ولا مضمّناً، ويكونَ مع ذلك ذاكراً لما عَقَدَ عليه أوَّلَ كلامه، وكونَ تصفُّحه لَمصادِرِه، في وزن تصفُّحه لموارده، ويكونَ لفْظُه مُونِقاً، ولهَوْل تلك المقامات معاوِداً، ومدارُ الأمر على إفهام كلِّ قومٍ بمقدارِ طاقتهم، والحملِ عليهم على أَقدار منازلهم، وأن تُواتِيَهَ آلاتُه، وتتصرّفَ معه أداتُه، ويكونَ في التُّهمَة لنفسه معتدلاً، وفي حسن الظنِّ بها مقتصداً؛ فإنه إنْ تجاوَزَ مِقدارَ الحقِّ في التُّهمة لنفسه ظَلَمها،

فأودَعها ذِلّة المظلومين، وإن تجاوَزَ الحقَّ في مقدار حُسْن الظنِّ بها، آمنها فأودَعَها تهاوُنَ الآمنين، ولكل ذلك مقدارٌ من الشُّغْل، ولكل شغْلٍ مقدارٌ من الوَهن، ولكل وهَنٍ مقدارٌ من الجهل"[1].

لعل أول ما يسترعي الانتباه من خلال هذا النص، هو مدى علاقة مفهوم البلاغة عند الهند بمفهومها عند العرب وما الدافع الذي دفع الجاحظ أو غيره إلى إيراد مثل هذا النص؟

إن نظرة الدارسين القدماء إلى مفهوم البلاغة بالمعنى العام وخاصة في سياق يرتبط بعلاقة الخطابة بالبلاغة كانت نظرة شمولية، لم يفرقوا فيها بين دلالة البلاغة عند العرب وبين دلالتها عند غيرهم. وربما كان ذلك بسبب تطابق المفهوم عند هؤلاء وأولئك. ومن ثم لم يجد الجاحظ ولا غيره ممن نقل عنه، غضاضة في نقل تعريفات الأمم الأخرى للبلاغة من فرس ويونان وغيرهم، حتى إننا نجد أبا هلال العسكري يقول: "العجم والعرب في البلاغة سواءٌ، فمن تعلم البلاغة بلغةٍ من اللغات، ثم انتقل إلى لغةٍ، أخرى، أمكنه فيها من صنعة الكلام، ما أمكنه في الأولى، وكان عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي، فحولها إلى اللسان العربي، ويدلك على هذا أيضاً، أن تراجم خطب الفرس، ورسائلهم هي على نمط خطب العرب ورسائلها"[2]. وإذا كان العديد من

(١) البيان والتبين الجاحظ. ١ / ٩٢ - ٩٣

(٢) كتاب الصناعتين للعسكري ٨٩ ـ ٩٠

بلغاء العرب وبلاغييهم قد قرنوا بين البلاغة وبين الخطابة، ثم بعد ذلك بين البلاغة والكتابة في أكثر من نص نظري وتطبيقي، فإن هذه الصحيفة الهندية قد نحت هذا المنحى أيضا وربطت بينهما في سياق واحد وواضح. ومن الطريف أن نجد في هذا الباب أن التراجمة العرب الذين ترجموا كتاب الخطابة لأرسطو قديما قد عربوا العنوان بعبارة: "كتاب الريطوريقا"، وليست "الريطوريقا" إلا بلاغة بالمفهوم اليوناني مما يعني أن ربط الخطابة بالبلاغة كان ديدن الدارسين في جميع اللغات والثقافات منذ أقدم العصور، ولذلك لم يبتعد العرب في تعريفهم للبلاغة عن هذا الموقف، وتقبلوا على أساس ذلك تعريفات الأعاجم لها.

على أن دلالة هذا التعريف الذي ورد في الصحيفة من حيث ربطه للبلاغة بالخطابة ليس غريبا على البيئة العربية، فلقد ورد على ألسنة بلغاء العرب ما يشبه هذا قبل أن تترجم هذه الصحيفة بقرنين من الزمان تقريب. "قال ابن الأعرابي: "قال معاوية بن أبي سفيان لصُحارِ بن عَيّاش العبديّ: ما هذه البلاغةُ التي فيكم؟ قال: شيء تَجِيش به صدورُنا فتَقذفُه على ألسنتنا، فقال له رجل من عُرْض القَوم: يا أمير المؤمنين، هؤلاء بالبُسْر والرُّطَب، أبصرُ منهم بالخُطَب. فقال له صُحار: أجَلْ واللهَّ، إنّا لنَعلم إنّ الرِّيح لَتُلْقِحُه، وإن البَرد ليَعقِدُه، وإن القمرَ ليَصْبِغُهُ، وإن الحَرّ ليُنْضِجهُ. وقال له معاوية: ماتعدُّون البلاَغَةَ فيكم؟ قال: الإيجاز. قال له معاويةُ: وما الإيجاز؟ قال صُحار: أن تُجيب فلا تبطئ، وتقولَ فلا تخطئ. فقال له معاوية:

أو كذلك تقول يا صُحَار؟ قال صُحار: أَقِلْني يا أمير المؤمنين، ألا تُبْطِئ ولا تُخْطئ"[1]. فسؤال معاوية كان عن البلاغة ومدى معرفة صحار بها بشكل واضح وصريح، بينما كان تعقيب الحاضرين على مدى معرفة صحار وقومه بالخطابة. مما يعني أن الثقافة السائدة الرابطة لمرجعية الكلام عند هؤلاء جميعا هي أن الخطابة ترادف البلاغة، والبلاغة ترادف الخطابة. ثم إن صحارا جمع، من باب التحدي للرجل الذي انتقص من قدر قومه، بين التنظير البلاغي والتطبيق الخطابي في سياق واحد.

ومع ذلك فإن هذا الموقف من بلاغيي العرب من تعريفات الأعاجم للبلاغة يثبت مفارقة عجيبة. ذلك أنهم إذا كانوا قد أثبتوا في أكثر من نص أن البلاغة تمتد إلى النص الشعري فإن مواقفهم من أشعار العجم كانت قائمة على الرفض الصريح، إذ اعتبروا ما عندهم من أشعار فاقدا للشعرية ولا يمكن أن يوصف أنه شعر أصلا، ومن ثم قال الجاحظ: "وما الفرق بين أشعارهم وبين الكلام الذي تسميه الروم والفرس شعرا... وكيف صارت العرب تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة، فتضع موزونا على موزون ، والعجم تمطط الألفاظ فتقبض وتبسط، حتى تدخل في وزن اللحن فتضع موزونا على غير موزون"[2]. ولذلك فإن التعليل الذي يمكن أن يقدم لهذه المفارقة، هو ارتباط مفهوم البلاغة عند الفريقين بالنثر أكثر من

(١) البيان والتبين الجاحظ. ١ / ٩٦

(٢) البيان والتبين الجاحظ : ١/ ٣٨٤ـ ٣٨٥ .

ارتباطه بالشعر، إذ أنه بالبلاغة والبيان تتفاخر جميع الأمم. "والِدَّلالة الظاهرةُ على المعنى الخفيِّ هو البيانُ الذي سمِعْتَ اللهَّ عزّ وجلّ يمدحُه، ويدعو إليه ويحثُّ عليه، بذلك نَطَقَ القُرآنُ، وبذلك تفاخَرَت العَرب، وتفاضَلَتْ أصنافُ العَجَم"(١). وبذلك تطابق المفهوم وتماثل عند العرب والعجم على حد سواء.

وبالنظر من جديد إلى هذه الصحيفة الهندية يلاحظ بشكل واضح كيف ربط التعريف بين البلاغة والخطابة في سياق واحد، فجعل الخطيب – وليس البليغ – هو مدار التعريف بكل جزئياته وتفرعاته. مما يعني أن مفهوم البلاغة الحق هو تلك القدرة التلقائية والطبيعية والغريزية التي تكون عند الخطيب، وتجعله يصوغ كلامه مبنى ومعنى، إيجازًا وإطنابًا، تلميحا وتصريحا، تبعا لمقامات المتلقين، متطلبات مستوياتهم العقلية وقدراتهم الإدراكية:

- لا يكلِّم سَيِّدَ الأمَة بكلام الأمَة ولا الملوكَ بكلام السُّوقة...
- ولا يدقِّق المعاني كلَّ التدقيق، ولا يُنقّحَ الألفاظ كل التنقيح، ولا يُصَفّيهَا كلَّ التّصفية، ولا يهذّبَها غاية التهذيب، ولا يفعلَ ذلك حتى يصادِفَ حكيماً، أو فيلسوفاً عليماً...

(١) المصدر السابق. ١/ ٧٥

- ومدارُ الأمر على إفهام كلِّ قومٍ بمقدارِ طاقتهم، والحملِ عليهم على أَقدار منازلهم...

كما أنه بالنظر أيضا إلى تعريف صحار العبدي للبلاغة وقد سأله معاوية: "ما تعدون البلاغة فيكم ..؟" بالإيجاز، ثم تعريفه للإيجاز بـ" أن تُجيب فلا تبطئ، وتقولَ فلا تخطئ". هو تعريف ينطلق من واقع التلقي؛ فلقد بدأ بالإجابة دون إبطاء، وطبعا ليست هناك أية إجابة دون وجود متلق ينتظرها بعد وضعه لسؤال معين. وعدم الإبطاء قي الجواب هو مراعاة لشعور المتلقي، واحترام لوقته وتقدير لشخصيته. والقول بلا خطأ يأخذ بعين الاعتبار المتلقي أيضا؛ لكن ليس أي متلق، بل ذلك المتلقي الاستثنائي الذي لا ينبغي أن تُصك أذناه أو تصدم مشاعره بخطأ في القول، كيفما كان هذا الخطأ. ولعل مؤاخذة معاوية لصحار على قوله غير الموجز في تعريف الإيجاز، وإدراك صحار ذلك مباشرة بحسه البلاغي المرهف، ثم استدراكه – بعد اعتذاره – قائلا: "ألا تبطئ ولا تخطئ"، رفعة أخرى من مكان المتلقي الحصيف، إذ لا إبطاء بدون سؤال، ولا خطأ بدون قول، ما دام الأمر يتعلق ببلاغة الخطاب. على أن معاوية رحمه الله في تعقيبه هذا ترجم هو الآخر أعلى مقامات البلاغة، وخاصة من جانب التلقي، في إدراكه الخفي السريع، أن الذي يعرف البلاغة بالإيجاز لا بد أن يكون تعريفه موجزا، أي أنه كان أن ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار متلقيه (معاوية) العربي الخطيب البليغ فيصوغ تعريفه وفق ما يتطلبه مقام التلقي.

على أن عدم الإبطاء في الجواب ليس عجلة، تترجم عدم التروي وقلة التفكر، بل على العكس من ذلك يدل على أن القوم كانوا متمكنين من صناعتهم، متقنين لما آتاهم الله من علم وغريزة في هذا الباب. ومن أتقن علمه دقة وتفننا لا يمكن أن يكون عجلا. "قال قائلٌ لإياس: لِمَ تَعْجَلُ بالقضاء؟ فقال إياس: كم لكفِّك من إصبَع؟ قال: خمس، قال: عجِلْتَ، قال: لَمْ يَعجل مَن قال بَعد ما قَتل الشيءَ علْماً ويقيناً. قال إياس: فهذا هو جوابي لك"(١).

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الخطابة عند العرب هي أعلى مقامات البلاغة، علمنا لماذا أورد الجاحظ وغيره هذه الصحيفة. ذلك أن مكانة الخطيب عند العرب كانت تنازع مكانة الشاعر الاجتماعية، بل إنها كانت تعتبر أعلى بالنظر إلى مقامات تصريف القول، حيث إن كلام الخطيب مرتبط أولاً وأخيراً بوجود السامعين المتلقين، مع حاجة هؤلاء المتلقين إلى نوع خاص من الخطاب ومن ثم فإنه لا وجود لخطابة دون وجود جمهور المتلقين، لأن النص الخطابي يولد في أحضان المتلقين، ثم إن الخطيب يواجه جمهوره بداهة وارتجالا، إذ لا مجال لإعادة النظر فيما يقوله، فإما تأثير وإقناع، وإما نكوص وارتداد. وهذا على عكس مقام الشاعر الذي بإمكانه أن يعيد النظر فيما كتبه من شعر مرات ومرات كما كان شأن أصحاب المدرسة الأوسية الذين عرفوا بالحوليات.

---

(١) البيان والتبين الجاحظ. ١ / ١٠٠

ومما يكمل هذه الصحيفة قول آخر يبدو من خلال السياق الذي ورد فيه أنه لبعض الهند أيضا، وفيه: "جمَاع البلاغة التماس حُسن الموقع، والمعرفةُ بساعات القول، وقلة الخَرَقِ بما التبَسَ من المعاني أو غَمُضَ، وبما شَرَد عليك من اللّفْظُ أو تعذّر، ثم قال: وزَينُ ذلك كلّه، وبهاؤُه وحلاوتهُ وسناؤُه، أن تكون الشّمائلُ موزونةً، والألفاظُ معدَّلةً، واللّهجة نقيَّة، فإنْ جامَعَ ذلك السنُّ والسمتُ والجمال وطولُ الصَّمت، فقد تَمَّ كلَّ التمام، وكمل كلَّ الكمال"[1]. ويبرز هذا القول من جهته أهمية المتلقي ودوره في صياغة البناء العام للقول البليغ، بدءا من التماس "حسن الموقع" الذي يبدو في المراعاة التامة لمقتضى الحال، مرورا بالبنية التركيبية للخطاب البليغ الذي ينبغي أن يكون وسطا، وبطريقة الإلقاء التي ينبغي أن تكون مؤثرة، وانتهاء بالمظهر المناسب الذي يبدو في عين المتلقي مزية بصرية تعزز المزية السمعية. فتتكامل بذلك مظاهر البلاغة بجميع أبعادها الجمالية الثلاثية: المتكلم، النص، المتلقي.

وإذا كان هذا النص يسير هو الآخر في ركب بلاغة الخطابة أيضا، فإن ما يتميز به عن الصحيفة السابقة الذكر، إبرازه مزية المظهر ودورها في عملية التلقي، حيث إنه حتى وإن بدت هذه المزية من خلال ظاهر النص كمالية، فإنها في حقيقتها، ركن من أركان هذا الكمال.

---

(١) المصدر السابق ١ / ٨٨ - ٨٩

على أن المزية البصرية في بلاغة التلقي لا ترتبط دائما عند القدماء بالمظهر الجميل، وإنما أيضا بالمظهر الوضيع كما ذهب إلى ذلك سهل بن هارون في تعقيبه على هذا القول، وهو ما سنتناوله في الفقرة الموالية.

وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول إن صياغة النص الخطابي، أو لنقل صياغة نص بلاغي جميل لا يمكن أن تتم بكل مقوماته الشكلية والمضمونية والبنائية والسياقية، وبكل أبعاده الفنية والحجاجية إلا بالأخذ بعين الاعتبار طبيعة المتلقي ومستواه الثقافي والإدراكي، ولا يمكن أن تتم على أساس رغبة شخصية ذاتية أو جامحة أو حتى عادية للمتكلم / الخطيب، إلى درجة أنه يمكن أن نقول إن المتلقي هو الذي يكون له الدور الأكبر في صياغة النص ابتداء من لفظه، وانتهاء بدلالته البلاغية ومعناه العام.

النص الثالث: قول سهل بن هارون:

سهل بن هارون هو أحد الكتاب البلغاء الذي حاول أن يعيد الاعتبار للكتابة العربية طابعها العربي الأصيل، ومن ثم ألف كتابه (النمر والثعلب) ردا على كتاب (كليلة ودمنة) ذي الطابع الأجنبي. ومن هنا جاءت بعض مواقفه من مفهوم البلاغة وقيمتها الجمالية اعتمادا على معيار التلقي، حتى ليمكن القول: إن سهل بن هارون جعل المتلقي في البؤرة، فما استحسنه فهو حسن، حتى وإن كان من حيث جمالية النص الحقيقية – من حيث هو نص – دون ذلك. وما استقبحه فهو قبيح حتى وإن كان من حيث جمالية النص الحقيقة – من حيث هو نص – فوق ذلك أيضا. ولقد اعتمد سهل في

رؤيته هذه على معيار التلقي البصري إضافة إلى التلقي السمعي، لكن ليس بالمنظور السابق الذي ورد عند بعض أهل الهند ولكن بمنظور آخر مخالف معتمد على تصوره الخاص لبلاغة التلقي. ولأهمية قول سهل أورده الجاحظ بعد قول صاحب الهند مباشرة.

" قال سهلُ بن هارون: لو أنَّ رجلَينِ خطبَا أو تحدّثا، أو احتجَّا أو وصَفَا وكان أحدُهما جميلاً جليلاً بهيّاً، ولَبَّاساً نبيلاً، وذا حَسَبٍ شريفاً، وكان الآخَر قليلاً قميئاً، وباذَّ الهيئة دَميماً، وخامِلَ الذِّكر مجهولاً، ثم كان كلامُهما في مقدارٍ واحدٍ من البلاغة، وفي وزنٍ واحدٍ من الصواب، لَتصدَّع عنها الجَمْع وعامّتهم تَقِضي للقليل الدَّميم على النَّبيل الجسيم، وللباذّ الهيئة على ذي الهيئة، ولشَغَلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه به، ولصار التعجُّب منه سبباً للعَجَب به، ولصار الإكثارُ في شأنِه عِلّةً للإكثار في مدحه، لأنّ النفوسَ كانت له أحقَر، ومِن بيانِه أيأس، ومن حَسَدِه أبعَد، فإذا هَجَمُوا منه على ما لم يكونُوا يَحتَسِبُونه، وظَهَرَ منه خلافُ ما قدَّرُوه، تضاعَفَ حُسْنُ كلامه في صدورهم، وكبُرَ في عيونهم؛ لأنَّ الشّيءَ من غير معدنه أغرب، وكلّما كان أغرَبَ كان أبْعدَ في الوهْم، وكلّما كان أبعَدَ في الوهم كان أطْرَف، وكلّما كان أطْرفَ كان أعجب، وكلما كان أعجبَ كان أبدع، وإنَّما ذلك كنوادِرِ كلام الصِّبيان ومُلَح المجانين؛ فإنّ ضحِك السامعين من ذلك أشدُّ، وتعجُّبَهم به أكثر، والنّاسُ مُوَكّلُون بتعظيم الغريب، واستِطراف البعيد، وليس لهم في الموجود الرَّاهن، وفيما تحتَ

قُدرتهم من الرّأي والهوى، مِثْلُ الذي لهم في الغريب القليل، وفي النادر الشاذّ، وكلِّ ما كان في ملْك غيرهم، وعلى ذلك زَهِدَ الجِيرانُ في عالِمِهم، والأصحابُ في الفائدة من صاحبِهم، وعلى هذا السّبيلِ يستَطْرفون القادمَ عليهم، ويرحَلُون إلى النَّازح عنهم، ويتركون مَن هو أعمُّ نفعاً وأكثرُ في وجوه العِلم تصرُّفاً، وأخفُّ مَؤُونةً وأكثرُ فائدة"[1].

إن الذي وقف عنده سهل بن هارون في قوله هذا شبيه بما يعرف عند المحدثين في نظرية التلقي بـ "أفق الانتظار". و "تخييب أفق الانتظار"، أو "تغييره". وإن كان "أفق الانتظار" في النظرية الحديثة يقوم على مبدأ "تلقي الأثر الأدبي" المكتوب وليس الشفاهي، فإن التشابه الأساسي يبدو في "الطريقة التي يتفاعل بها الجمهور مع الأثر الأدبي، والتي تزودنا بمعيار للحكم على قيمته الجمالية. فالمسافة بين أفق التوقع والأثر الأدبي من بين المعايير التي تزودنا بها الخبرة الجمالية السابقة. و"تغيير الأفق" الناتج عن استقبال الأثر الأدبي الجديد، تحديد لجمالية التلقي الخالصة لأثر أدبي ما"[2].

ومن الأكيد أن تفاعل المتلقي مع الأثر الأدبي المسموع، في نظر سهل بن هارون يزداد ويقوى حينما يصدر هذا الأثر "من غير معدنه" أي من غير ذلك المصدر الذي يتوقعه المتلقي في العادة، وهو المصدر الذي وصفه الآخر "السن والسمت والجمال". وبذلك يكون النص الأدبي البليغ قد

---

(١) المصدر السابق ١ / ٨٩ـ ٩٠

(٢) نحو جمالية التلقي. هانس روبرت ياوس. ترجمة وتقديم : د. محمد مساعدي. ص: ٦٥.

اكتسب جمالية إضافية نتيجة تغير أفق التوقع لدى السامع، وحدوث عدول جمالي لم يكن منتظرا من المصدر، بسبب التلقي البصري. ومن المعلوم أن العين حاسة أساسية في التلقي. يقول ابن حزم: "واعلم أن العين تنوب عن الرسل، ويدرك بها المراد، والحواس الأربع أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس، والعين أبلغها وأصحها دلالة أو عرها عملاً. وهي رائد النفس الصادق، ودليلها الهادي، ومرآتها المجلوة التي بها تقف على الحقائق وتميز الصفات وتفهم المحسوسات. وقد قيل: ليس المخبَر كالمعاين"[1]. وقد أثبتت الأبحاث المخبرية الحديثة أن ٨٧٪ من المعلومات التي تنقل إلى الدماغ البشري تمر عبر العينين، و ٩٪ منها تمر عبر الأذنين، وتبقى نسبة ٤٪ لتمر عبر الحواس الأخرى[2].

ومما يلفت الانتباه في قول سهل ورود جملة من المصطلحات التي تترجم التلقي الجمالي للخطاب بشكل دقيق؛ فالغرابة، والبعد في الوهم، والتعجب، والاستطراف، والتعظيم، والبداعة، من المصطلحات التي استعملت منذ القديم للتعبير عن انبهار المتلقي وإعجابه بالنص لدى سماعه أو قراءته له، ذلك الانبهار الذي يكسب النص، في الغالب ولادة جديدة، خاصة حينما يكون المتلقي من الصنف الاستثنائي المتميز الذي

(١) رسائل ابن حزم. تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ص: ١٣٧

(٢) لغة الجسد. آلن بيير. تعريب سمير شيخاني، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط، ٢ / ١٩٩٧، بيروت، ص: ٩٩

سبقت الإشارة إليه، حيث يؤدي هذا الانبهار إلى ترداد ما سمعه متعجبا مستغربا، أو مستطرفا مستظرفا، فيكون ذلك بمثابة إنتاج جديد للنص. مثال ذلك موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الأشعار الجميلة التي كانت تنشد بحضرته. فلقد كان رضي الله عنه "أعلَم الناسِ بالشِّعر... ولقد أنشدوه شعراً لزهير – وكان لشعره مقدِّماً – فلما انتهوا إلى قوله:

وإنّ الحقَّ مَقْطَعُه ثلاثٌ يمينٌ أو نِفار أو جِلاءُ

قال عمر كالمتَعجِّب مِن علمه بالحقوق وتفصيله بينها، وإقامته أقسامَها:

وإنّ الحقَّ مقطعهُ ثلاثٌ يمين أو نِفَارٌ أو جِلاءُ

يردِّدُ البيتَ من التعجُّب، وأنشدوه قصيدةَ عَبْدَةَ بنِ الطبيب الطويلةَ التي على اللاّم، فلما بلغ المنشد إلى قوله:

والمرء ساعٍ لشيء ليس يدركُه والعيش شُحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ

قال عمر متعجِّباً:

والعيش شُحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ

يعجِّبهم من حسن ما قسَّم وما فصَّل، وأنشدوه قصيدة أبي قيس بن الأسلت التي على العين، وهو ساكت، فلما انتهى المنشد إلى قوله:

الكَيْسُ والقُوَّةُ خيرٌ من ال إِشْفاقِ والفَهّةِ والهَاعِ

أعاد عمر البيت وقال:

الكَيس والقُوَّةُ خيرٌ من ال إِشْفاقِ والفَهّةِ والهَاعِ

وجَعل عمر يردِّد البيت ويتعجب منه".[1]

فترداد عمر رضي الله عنه لبيت زهير إبداع جديد له، وإظهار لجماليته للآخرين "يعجب الناس". وكأن النص ولد ولادة جديدة بتلقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه له.

على أن سهل بن هارون لم يكن أقل بلاغة أو أقل جمالا، حتى يتوهم أن ذلك هو الدافع إلى موقفه هذا، بل كان على العكس من ذلك، الأمر الذي يبين أنه قد أدرك سرا من أسرار التلقي الجمالي الذي يتجلى حينما يصدر النص "من غير معدنه"، فكأنه "يخيب" بذلك "أفق انتظار المتلقي"، أو على الأقل خيب "التصور المسبق" الذي شكله عنه الجمهور من خلال هيئته ولباسه...، مما جعله يحظى باهتمام أكثر من الرجل الذي اكتفى

(١) البيان والتبين الجاحظ.١ / ٢٤٠ـ٢٤١

بالاستجابة للتصور المسبق الذي شكله الجمهور منه[١]. قال الجاحظ: "وكان سهلٌ في نفسه عتيقَ الوجه، وحسنَ الشّارةِ، بعيداً من الفَدَامة، معتدل القامة، مقبول الصُّورة، يُقضَى له بالحكمة قبل الخبرة، وبِرقّةِ الذِّهن قبل المخاطبة، وبدقّة المذهب قبل الامتحان، وبالنُّبْل قبل التكشُّف، فلم يمنَعْه ذلك أن يقول ما هو الحقُّ عِنده وإن أدخَلَ ذلك على حالِه النَّقْص"[٢].

وإذا كان سهل قد أبرز في قوله السابق أهمية ما يتعلق بالجانب المظهري (السمت والجمال) فإن هناك نصوصا أخرى تشير إلى أن عامل السن قد يحدث هو الآخر هزة لدى المتلقي، ويغير " تصوره المسبق" حينما يستمع مثلا إلى خطاب بليغ صادر من صبي لا يتوقع منه أن يصدر منه مثل ذلك. وهذا ما يبدو من خلال النص التالي: "دخل إياسُ بنُ معاويةَ الشامَ وهو غلام، فقدِّم خصماً له إلى قاضٍ لعبد الملك، - وكان خَصْمه شيخاً كبيراً - فقال له القاضي: أتقدِّم شيخاً كبيراً؟ فقَال له إياس: الحقُّ أكبرُ منه! قال له: اسكت. قال: فمن يَنْطق بحُجَّتي؟ قال: ما أظنّك تقُول حقّاً حتى تقُوم.

---

(١) مفهوم "التصور المسبق" هو الذي نشكله عن بعضنا البعض اعتمادا على معطيات غير لفظية، هذا التصور قد يكون صائبا وقد يحتاج إلى تعديل ذلك أن التصور المسبق في التواصل يشتغل بنفس الطريقة التي يشتغل بها أفق التوقع في نظرية التلقي، لأن الأفق الذي يتشكل لدى القارئ قد يستجيب له النص الجديد، وقد يغيره، وقد يخيبه إذا كان النص يتجاوز أفق توقع جمهوره الأول، وهو حال النصوص التي لا تجد جمهورها فور صدورها بل تحتاج لزمن قد يطول حتى تصبح قابلة للفهم والتمثل.

(٢) المصدر السابق ١ / ٨٩

قال: لا إله إلا اللهّ، أحقا هذا أم باطلا؟. فقام القاضي فدخل على عبد الملك من ساعته فأَخبره بالخبر. فقال: اقض حاجتَه الساعة وأَخْرجه من الشام لا يُفْسِد عليّ الناس"[1].

ومما يؤكد ما نحن فيه أن ابن عبد ربه قد أورد هذا القول في سياق حديثه عن أوجه البلاغة وذكره لبعض فصولها ونصوصها، وبذلك فهو يعبر بشكل واضح عن أن المتلقي القاضي الذي استمع إلى قول إياس قد تغير " تصوره المسبق" لما رآه من بلاغة الغلام، حيث إنه لم يكن ينتظر أن يجابه بكلام بليغ مؤثر من قبيل ما سمعه من هذا الغلام اليافع. على أن ابن عبد ربه قد انطلق في ذكره لوجوه البلاغة من تحديدات أربعة فقال: "البلاغة تكون على أَرْبعة أَوْجه: تكون باللّفظ والخطّ والإشارة والدِّلالة، وكلٌّ منها له حظّ من البلاغة والبَيَان، ومَوْضع لا يجوز فيه غيرُه، ومنه قولُهم: لكل مَقام مَقال، ولكل كلام جَواب، ورُبّ إشارة أبلغ من لفظ"[2]. ومعلوم أن الإشارة التي تعتبر من ركائز البيان عند عامة البلغاء قد أفرد لها الجاحظ فصولا مطولة من كتابه البيان والتبين منطلقا مما أورده هو الآخر من تعريف للبيان حيث قال: "وجميعُ أصنافِ الدِلاَّلات على المعاني من

(١) المصدر السابق ١ / ١٠١. وورد القول في العقد الفريد لابن عبد ربه. وقد نسب القول والحدث إلى أكثر من واحد.

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه. ٢/ ٢٦٤

لفظ وغير لفظ، خمسة أشياءَ لا تنقُص ولا تَزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العَقْد، ثم الخَطّ، ثمَّ الحالُ التي تسمّى نِصْبةً"(١). وعلى هذا الأساس جعل الإشارة ركنا أساسيا في البيان، لأنه دلالة على الحياة بالنسبة للمتلقي(٢). فالفرق بين أن يصدر الكلام من شخص لا يتحرك وكأنه يصدر من صخرة وبين أن يصدر من إنسان يتحرك ويشير تبعا لمستويات كلامه، هو فرق ما بين السماء والأرض، أي فرق بين البلاغة في صورتها الجمالية الكاملة، وبين كلام يفتقد إلى أدنى درجة من الحياة. ومن طريف ما أثبتته الدراسات الحديثة اعتمادا على معطيات إحصائية أن الكلمات في الخطاب الشفوي تمثل في الغالب نسبة ٧% في حين يمثل التنغيم نسبة ٣٨%.

أما الإشارات فإنها تمثل نسبة ٥٥%، مع العلم أن بعض الإشارات تؤدي دورا أساسيا في تبليغ المعلومات في حين يقتصر بعضها الآخر على مفصلة الكلام(٣).

---

(٢) البيان والتبين الجاحظ. ١ / ٧٩

(٣) قال: "والإشارة واللّفظ شريكان، ونِعْم العونُ هي له، ونعم الترجمانُ هي عنه، وما أكَثرَ ما تنوب عن اللّفْظِ، وما تُغني عن الخطِّ ... ولولا الإشارةُ لم يَتفاهم النَّاسُ معنَى خاصّ الخاصّ "(البيان والتبين ١ / ٧٨)

(١) R. Charles C. Williame, La communication orale, éd, NATTAN, ١٩٨٨ p, ٨.

٢- بلاغة الخطاب بين المتلقي والمتكلم:

عادة حينما تذكر البلاغة ينصرف الذهن مباشرة إلى الخطاب أو النص اللغوي في حد ذاته دون النظر في الغالب إلى ما يتعلق بالمتكلم باعتباره منتجا لهذا النص، ودون النظر أيضا إلا ما يتعلق بالسامع (أو القارئ) باعتباره متلقيا لهذا النص. وسبب ذلك، فيما يبدو، هو أن البلاغة حينما صيغت في قوالب وقوانين وقواعد معينة ضابطة في العصور المتأخرة، نظر مقعدوها إلى ما له علاقة بالنص في الغالب، ولم ينظروا إلى ما يتعلق بالمتلقي إلا في حدود ضيقة حينما أفردوا له باب ما يعرف بـ"مراعاة مقتضى الحال"، كما أن الشروط التي تتعلق بالمتكلم غيبت هي الأخرى تقريبا، ولم تظهر إلا في مباحث محدودة، أدرج بعضها في باب الفصاحة التي اعتبرها البعض مستقلة عن البلاغة.

بيد أن التعريفات التي نحن بصددها والتي - كما سلف الذكر- تعود إلى العصور الأولى للبلاغة، أي قبل حصر قواعدها في قوالب نظرية محدودة، لم تقتصر في أي نص منها تقريبا على ذكر ما يتعلق بالنص، بل كانت تجمع دائما، أو في معظمها على الأقل، بين الأبعاد الثلاثية لبلاغة الخطاب (المتكلم – النص – المتلقي) بدءا من عملية التواصل اللغوية العادي التي تهدف إلى الإخبار حسب دوسوسير(١)، أو الإفهام والتفهم حسب تعبير العرب القدماء، مرورا بعملية التواصل الجمالية البلاغية التي

(١) ينظر: F. de Saussure. Cours de linguistique générale. PAYOT. PARIS. ١٩٧٩ pp. ٢٧ - ٢٨

تهدف إلى البيان والتبيُّن، وانتهاء بالتواصل الحجاجي التأثيري الذي يرمي إلى الإقناع والاقتناع.

ومن الطريف أن نجد في عدد من التعريفات الواردة في هذه النصوص، أن البلاغة في أسمى درجاتها الجمالية هي التي لا يمكن أن تدرك حق الإدراك، وأن تتمثل بشكل كامل إلا إذا كان المتكلم والمتلقي معا يتقاسمان المسؤولية مناصفة في عملية الإدراك هذه. ومن نماذج هذه التعريفات ما يلي:

ـ "يكفي من حظِّ البلاغة أن لا يُؤتَى السَّامعُ من سوء إفهام النَّاطق، ولا يُؤتَى النَّاطقُ من سوء فهم السَّامع"(١).

ـ "وقال بعضهم - وهو مِن أحسَن ما اجتبَيْناه ودَوَّنّاه - لا يكون الكلامُ يستحق اسمَ البلاغة حتَّى يسابقَ معناه لفظَه، ولفظُهُ معناه، فلا يكونَ لفظُه إلى سمعك أسبَقَ من معناه إلى قلبك"(٢).

ـ إذا لم يكن المستمعُ أحرصَ على الاستماع من القائل على القول، لم يبُلغ القائلُ في منطقه، وكان النُّقصان الداخلُ على قوله بقدْر الخَلَّة بالاستماع منه(٣).

---

(١) البيان والتبين الجاحظ. ١ / ٨٧

(٢) المصدر السابق. ١ / ١١٥

(٣) المصدر السابق. ١ / ٣١٥

ـ "قلت للعَتَّابيّ: ما البلاغة؟ قال: كلُّ مَنْ أفهمك حاجته من غير إعادةٍ ولا حُبْسَة ولا استعانةٍ فهو بليغ، فإن أردتَ اللِّسانَ الذي يرُوق الألسنة، ويفوق كلَّ خطيب، فإظهارُ ما غَمُض من الحقِّ، وتصويرُ الباطل في صورة الحقّ، قال: فقلت له: قد عرفتُ الإعادة والحُبْسَة، فما الاستعانة؟ قال: أمَا تَرَاه إذا تحدّثَ قال عِند مقاطع كلامه: يا هَنَاهُ، ويا هذا، ويا هَيه، واسمَعْ مني واستمعْ إليَّ، وافهمْ عنّي، أوَلست تفهمُ، أوَلست تعقِل"[1].

ـ "وقال يحيى: الكلامُ ذُو فنون، وخيره ما وفق له القائل، وانتفع به السامع"[2].

ـ "وكان خالدُ بن صَفْوان يقول: لا تكونُ بليغاً حتى تُكلِّم أمَتك السَّوداء في اللّيلة الظَّلماء في الحاجة المُهِمَة بما تَتكلَّم به في نادي قَومك"[3].

إن هذه التعريفات وما ماثلها تعبر بشكل واضح عن أن البلاغة في أسمى صورها هي التي يشترك في صناعتها كل من المتكلم والمتلقي إلى درجة أن الجاحظ اعتبر نصين اثنين من أحسن ما دونه وكتبه. فالنص الأول يعبر بشكل واضح عن أن مدار البلاغة على أمرين متساويين: (إفهام الناطق، وفهم السامع)، وطبعا هذا لا يتأتى إلا بوجود سَنَن (Code)،

(١) المصدر السابق. ١ / ١١٣

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه. ٢/ ٢٦٦

(٣) المصدر السابق . ٢/ ٢٦٩ – ٢٧٠

حسب تعبير اللسانيين المحدثين[١]، متواضَع عليه بين المتكلم والسامع. وترتفع درجة هذا السنن إلى مستوى أعلى من بلاغة الخطاب عن الكلام العادي إلى أن يصل إلى درجة جمالية عليا حتى لا يكون هناك أي خلل في الفهم والإفهام.

ومن اللافت للانتباه أن الذي ورد في النص هو "إفهام الناطق (للسامع)" وليس "نطق الناطق". مما يعني أن الكلام البليغ في أصله وجد من أجل إفهام الناطق للسامع، وليس من أجل صناعة بلاغية جمالية خاصة بالنص لا يؤخذ فيها المتلقي بعين الاعتبار. كما أنها ليست براعة كلامية يكون للمتكلم فيها النصيب الأكبر، أو ربما كل شيء؛ وليس للمتلقي فيها أي نصيب.

على أن "الإفهام" هنا ليس التعبير عن المعنى كيفما اتفق ولا ينبغي أن يكون كذلك، لأن التعريف الذي ورد فيه هذا المعنى هو تعريف للبلاغة وليس تعريفا للكلام أو التواصل، ومن ثم فإن الإفهام المقصود هو ذلك الفهم الجمالي الذي يحدث للمتلقي أثناء تلقي الكلام. إنه ذلك "التعجب" أو "الغرابة" أو "الاستطراف" أو "الاستظراف" أو "البداعة"، حسب تعبير سهل بن هارون السالف الذكر، أو تلك "المتعة" حسب تعبير الناقد الحديث (رولان بارت)[٢]. وإن شئنا أن نقتبس بعض مصطلحات التلقي

---

(١) ينظر: Pierre Guiraud. La Semantique.Presses universitaires de France ١٩٧٩ . P.٦٣ .

(٢) مغزى كتابه "متعة النص". ١٩٨٢ Le Plaisir du texte. Seuil .

الحديثة، مع التنصيص على الفارق طبعا، هو ذلك "الأفق من الانتظار" الذي يتماهى فيه المتلقي مع أفق الخطاب، أو المخاطَب في حد ذاته إلى أن يصبح المتلقي أحد صُنّاعه ومنتجيه ولو بطريقة غير مباشرة.

ولقد انتبه الجاحظ إلى دلالة مصطلح "الإفهام" وخاصة في قول العتابي حينما سئل ما البلاغة، فقال: "كل من أفهمك حاجته"، فعقب على ذلك بما يفيد أن الإفهام في حد ذاته الذي يحصل بالتواصل اللغوي العادي ليس هو المقصود، وإنما المقصود إيصال المراد بلغة جمالية أدبية[1]. ولذلك ربط العتابي مفهوم الإفهام بغياب "الإعادة" و "الحبسة"، لأن حضور هذين العيبين، كما فسرهما العتابي نفسه، يفسدان جمالية النص ويشوشان على مكامن بلاغته. ولا أدل على ذلك مما ذهب إليه بعض المفسرين في بيان قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾[2]، حيث قال ابن كثير: "وذلك لما كان أصابه من اللثغ حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، ... وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة، ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت

(١) قال: "والعتَّابيّ حين زعم أنّ كلَّ مَن أفهمك حاجتَه فهو بليغٌ لم يَعْنِ أنّ كلَّ مَن أفهمَنا مِنْ معاشر المُوَلَّدين والبلديِّين قَصْدَه ومعناه، بالكلام الملحون، والمعدول عن جهته، والمصروف عن حقّه، أنّه محكوم له بالبلاغة كيف كان ... وإنّما عنى العتّابي إفهامَكَ العربَ حاجتَك على مَجاري كلام العرب الفُصَحاء(البيان والتبين ١/ ١٦١ - ١٦٢).

(٢) سورة طه. الآية : ٢٧

بقية"[1]. ف "اللثغة" – حسب تفسير ابن كثير – أو "الحبسة"، حسب ما ورد عند البيضاوي ظاهرتان نطقيتان لا تساعد صاحبهما على الإبانة الجيدة عما في نفسه. ولقد اعتبرهما البلاغيون والبيانيون من عيوب النطق، ولذلك طلب موسى عيه السلام من ربه عز وجل أن يزيل عنه هذا العيب النطقي حتى يتمكن من إبلاغ رسالته على أحسن وجه.

ويعزز هذا الاتجاه ما ورد في النص الموالي، حيث وصف بعضهم البلاغة بقوله: " لا يكون الكلامُ يستحق اسمَ البلاغة حتَّى يسابقَ معناه لفظَه، ولفظُهُ معناه، فلا يكونَ لفظُه إلى سمعك أسبَقَ من معناه إلى قلبك". والمسابقة بين اللفظ والمعنى تفيد أمورا منها:

ـ أن العبرة ليست باللفظ فقط – وإن حسن – ، ولا بالمعنى فقط – وإن جاد – ، ولكن بتضافرهما معا في سياق واحد جميل.

ـ أن وجودهما معا، وتضافرهما معا في سياق واحد، ليس لخصوصية فيهما لذاتهما، وإنما بسبب الإبلاغ. ولذلك فإن ورود مصطلح "المسابقة" في

---

(١) تفسير ابن كثير . وهو ما يبدو أيضا في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (الشعراء. الآية ١٣). حيث قال البيضاوي: " رتب استدعاء ضم أخيه إليه وإشراكه له في الأمر على الأمور الثلاثة: خوف التكذيب، وضيق القلب انفعالاً عنه، وازدياد الحبسة في اللسان بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطلق، لأنها إذا اجتمعت مست الحاجة إلى معين يقوي قلبه وينوب منابه، متى تعتريه حبسة، حتى لا تختل دعوته ولا تنبتر حجته، وليس ذلك تعللاً منه وتوقفاً في تلقي الأمر، بل طلباً لما يكون معونة على امتثاله وتمهيد عذره فيه. " (أنوار التنزيل وأسرار التأويل. للبيضاوي).

التعريف يعبر عن ذلك بوضوح، وهو مصطلح طريف يفيد أن نظم الكلام في أصله ينبغي أن ينطلق من مبدأ "إفهام المتلقي" وفق المفهوم الذي سبق تحديده قبل قليل. على أساس ألا يفصل أي حاجز بين النص وبين المتلقي؛ لأن عملية المسابقة تقتضي ذلك، وإلا كان السباق متعثراً.

وعلى هذا الأساس فإن بلاغة التلقي وجماليته وفق هذا المنظور لا يبنى الكلام فيهما على المبالغات الطائشة، ولا الخيالات الهائمة، ولا المعاني الحالمة، ولا على المعاظلة في الكلام، ولكن على الإبلاغ الذي يفيد المتلقي ويمتعه ويريحه في ذات الوقت. ولذلك قيل: " الكلامُ ذُو فنون، وخيره ما وفق له القائل، وانتفع به السامع"[1]. وهو كما قال بشر بن المعتمر في صحيفته: "وإنّما مَدارُ الشّرَف على الصواب وإحراز المنفعة"[2]. ومعنى هذا أن بين البلاغة وفق هذا المفهوم وبين الغموض برزخ لا يمكن أن يبغي فيه أحد على الآخر.

وبناء على هذا التأسيس الجمالي للتلقي، رفض النقاد والبلاغيون – كما هو معلوم – العديد من النصوص الأدبية التي يحول دون فهمها بشكل سليم وجمالي حاجز ما، لأن ألفاظها ومعانيها لا تستطيع التسابق من أجل إفهام المتلقي بأبسط الطرق وأيسرها. إذ أن معيار الجودة في الإبلاغ أن يعرض على الفهم الثاقب، فما قبله واصطفاه فهو جيد، وما مجه ونفاه فهو

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه. ٢ / ٢٦٦

(٢) البيان والتبين. للجاحظ. ١ / ١٣٦

مرفوض[1]. ومن هذا الباب استثقل النقاد القدامى – وهم نخبة المتلقين – العديد من النصوص الشعرية. من ذلك ما ذكره النقاد حول مطالع القصائد المادحة التي لم تناسب دلالتها المتلقي الممدوح لانعدام السباق السلس بين ألفاظها ومعانيها، فصدمت متلقيها بنشازها عن قواعد التلقي الجمالية. قال ابن رشيق: "دخل جرير على عبد الملك بن مروان فابتدأ ينشده:

أتصحو أم فؤادك غير صاحٍ ...

فقال له عبد الملك: " بل فؤادك يا بن الفاعلة" كأنه استثقل هذه المواجهة وإلا فقد علم أن الشاعر إنما خاطب نفسه.

ومن هذه الجهة بعينها عابوا على أبي الطيب قوله لكافور أول لقائه مبتدئاً، وإن كان إنما يخاطب نفسه لا كافوراً:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكن أمانيا

(١) يقول ابن طباطبا: " وعيار الشعر أن يورد على الفهم الثاقب، فما قبله واصطفاه فهو رائق، وما مجه ونفاه فهو ناقص. والعلة في قبول الفهم الناقد للشعر الحسن الذي يرد عليه، ونفيه للقبيح منه، واهتزازه لما يقبله، وتكرهه لما ينفيه، إن كل حاسة من حواس البدن إنما تتقبل ما يتصل بها مما طبعت له إذا كان وروده عليها ورواداً لطيفاً باعتدال لا جور فيه، وبموافقة لا مضادة معها". (عيار الشعر لابن طباطبا العلوي. ص: ٢٠).

فالعيب من باب التأدب للملوك، وحسن السياسة لازم لأبي الطيب في هذا الابتداء، لا سيما وهذا النوع – أعني جودة الابتداء – من أجلّ محاسن أبي الطيب، وأشرف مآثر شعره إذا ذكر الشعر.

ودخل ذو الرمة على عبد الملك بن مروان، فاستنشده شيئاً من شعره، فأنشده قصيدته:

ما بال عينك منها الماء ينسكب ...

وكانت بعين عبد الملك ريشة فهي تدمع أبداً، فتوهم أنه خاطبه أو عرض به، فقال: وما سؤالك عن هذا يا جاهل؟ فمقته وأمر بإخراجه.

وكذلك فعل ابنه هشام بأبي النجم وقد أنشده في أرجوزة:

صغواء قد كادت ولما تفعل كأنها في الأفق عين الأحول

وكان هشام أحول، فأمر به فحجب عنه مدة، وقد كان قبل ذلك من خاصته: يسمر عنده، ويمازحه. وإنما يؤتى الشاعر في هذه الأشياء؛ إما من غفلة في الطبع وغلظ، أو من استغراق في الصنعة وشغل هاجس بالعمل يذهب مع حسن القول حيث ذهب.

والفطن الحاذق يختار للأوقات ما شاكلها، وينظر في أحوال المخاطبين؛ فيقصد محابهم، ويميل إلى شهواتهم وإن خالفت شهوته، ويتفقد ما يكرهون سماعه فيجتنب ذكره"[1].

ومن باب الأخذ بعين الاعتبار النظر في أحوال المخاطبين، رفض النقاد قول الفرزدق:

ومَا مِثْلُهُ في الناسِ إلا مُمَلَّكَاً أبُو أمِّهِ حيٌّ أبوه يُقاربه

لأن الشاعر "كدَّ وكَدَّر، ومنع السامع أن يفهم الغرضَ إلاّ بأنْ يُقدِّم ويؤخّر، ثم أسرفَ في إبطال النِّظام، وإبعاد المرَام، وصار كمن رَمَى بأجزاء تتألّف منها صورةٌ، ولكن بعد أن يُراجَعَ فيها باباً من الهندسة، لفرط ماعادَى بين أشكالها، وشدّةِ ما خَالف بين أوضاعها"[2].

ومن باب كدّ المتلقي ومنعه من الفهم عن طريق تكدير المعنى بإبطال نظام اللفظ، الإفراط في تزيين اللفظ، والمبالغة في التوهيم كما هو الحال في خطبة ابن الأشعث التي قالها وهو يحرض قومه على القتال، حيث جاء فيها: "أيُّها النّاس، إنّه لم يَبقَ من عُدوّكم إلاّ كما يبقى من ذنب الوزَغة، تضرب بِهِ يميناً وشِمالاً، فما تَلبَثُ أن تموت. فمرّ به رجلٌ من بني قُشَير فقال: قَبَّح اللهَّ هذا ورأيَهُ، يأمر أصحابَه بقلّة الاحتراس من عدوهم،

(١) العمدة لابن رشيق. ١/ ٣٩٤ – ٣٩٥

(٢) أسرار البلاغة. لعبد القاهر الجرجاني ص: ٢١

ويَعِدهم الأضاليل، ويمنِّيهم الأباطيل. وناسٌ كثيرٌ يَرون أنّ ابن الأشعث هو المحسن دون القُشَيريّ"[1]. فاضطراب الفهم وتفاوته بين جمهور المتلقين يعود بشكل أساسي إلى الإفراط في تحسين اللفظ مما أدى إلى إبعاد المعنى عن إدراك المتلقي.

ويعزز هذا الفهم نصوص تعريفية أخرى تبين أن هدف البلاغة التخفيف عن المتلقي ورفع الكلفة عنه ولذلك قال جعفر بن يحيى وقد سئل: ما البيان؟ قال: "أن يكون الاسمُ يحيط بمعناك، ويجلِّي عن مَغزاك، وتُخْرِجَه عن الشِّرْكة، ولا تستعين عليه بالفِكرة، والذي لا بُدّ له منه، أن يكون سليماً من التكلُّف، بعيداً من الصّنعة، بريئاً من التعقُّد، غنِيّاً عن التأويل، وهذا هو تأويلُ قولِ الأصمعيَ: البليغُ مَن طَبَّقَ المَفْصِل، وأغنَاك عن المُفسِّر"[2]، والمفسر هو المعيد للكلام الأول بهدف إيضاحه، سواء أكان هذا المفسر هو القائل الأول لهذا الكلام أم غيره. فإذا كان هو القائلَ، فمعنى ذلك أنه لم يُبن، ولم يُفهم المتلقي، فاضطر إل إعادة كلامه بصيغة

(١) البيان والتبين. للجاحظ. ٢/ ١٥٥. ونظيره ما رواه الأصمعي أن قوما جَنوا جناية "فأرسل إليهم السُّلطانُ جنداً...، فقام رجلٌ من أهل البادية يُذمِّرُ أصحابَه – بكلام فيه مبالغة وتوهيم – فخلَعَ قلوبَهم فطارُوا رُعْباً"(الحيوان . للجاحظ). فحدث عكس ما أراد، بسبب عدم التناسب بين اللفظ والمعنى، حيث فهم السامعون عكس ما يريده الخطيب.

(٢) المصدر السابق . ١/ ١٠٦. وينظر المحاسن والمساوئ . للبيهقي ص: ٢١١. ومعلوم ألا فرق بين "البلاغة والبيان إلا في اللّفظِ" انطلاقا من من المعنى المحدد الذي سبق في بداية الحديث كما قال المظفر بن فضل العلوي، ونص على ذلك العديد من البلغاء والبلاغيين.

تفسيرية أخرى. وإن كان غيره، فمعنى ذلك أن المتلقي أيا كان لم يستوعب ما قيل، فيضطر المفسر – وهو أحد المتلقين – إلى الاجتهاد في إيضاح المعنى من جديد، وهو هدف قلما يصاب.

على أن بعض التعريفات نحت منحى لا ينال، أو على الأقل يصعب تحصيله، وذلك حينما جعلت مقامات البلاغة متماثلة أو متقاربة. قال خالد بن صفوان: " لا تكونُ بليغاً حتى تُكلِّم أمَتك السَّوداء في اللّيلة الظَّلماء في الحاجة المهمة بما تَتكلَّم به في نادي قَومك"[1]. وهذه الحالة أو المكانة من البلاغة وإن كانت في الغالب سمة من سمات خالد بن صفوان، فإنها صعبة التحقيق لأن مقام خطاب الإنسان لأهله وخدمه وحشمه داخل بيته – وخاصة في الليل – لا يمكن أن يحمل أو يقارن بخطابه في وسط نادي قومه، من حيث القيمة الجمالية للخطاب في حد ذاته، ومن حيث النظر أيضا إلى جهة المتلقي؛ فجلساء النادي الذين يكونون في الغالب من علية القوم لا يمكن أن يخاطبوا بمثل ما تخاطب به الأمَة داخل البيت.

غير أنه مع ذلك، فإن لقول خالد هذا – وهو المعروف ببلاغة اللسان وطلاقته[2] – أكثر من تفسير؛ من ذلك أنه يقصد بقوله هذا أعلى مقام في

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه. ٢/ ٢٦٩ – ٢٧٠

(٢) امتدح بلاغته العديد من القدماء. ومما يرويه الجاحظ عن بلاغته وقدرته على التأثير في المتلقي، أيا كان هذا المتلقي؛ قوله: "ومن الخطباء المشهورين في العوامّ، والمقدّمين في الخواص: خالد بن صفوان الأهتميّ، زعموا جميعاً أنه كان عند أبي العباس أمير المؤمنين، وكان من سمّارِه وأهل المنزلة عنده، ففخَر عليه ناسٌ من بَلْحارِث بن كعب، وأكثروا في القول. فقال =

البلاغة الذي عرف ب "السهل الممتنع" ، وهو الذي عبر عنه بشر بن المعتمر في صحيفته المشهورة بقوله: "وإنّما مَدارُ الشّرَف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافَقَة الحال، وما يجب لكلّ مَقامٍ من المقال، وكذلك اللفظ العامّيّ والخاصّيّ، فإنْ أمكنَكَ أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغةِ قلمك، ولُطف مَدَاخلك، واقتدارِك على نفسك، إلى أن تُفْهم العامَّة معانيَ الخاصَّة، وتكسُوَها الألفاظَ الواسطة التي لا تَلطُف عن الدَّهْماء، ولا تَجفُو عن الأَكْفاء، فأنت البليغ التامّ"[1]. وهذا قمة البلاغة، حيث يكون البليغ قادرا على تطويع الكلام بلفظه ومعناه، فيُفهم الجميع في مقام واحد، دون

= أبو العباس: لِمَ لا تتكلَّم يا خالد؟ فقال: أخوال أمير المؤمنين وأهلُه. قال: فأنتم أعمام أمير المؤمنين وعَصبَتُه فقُلْ. قال خالد: وما عَسى أن أقولَ لقومٍ كانوا بين ناسِجِ بُردٍ، ودابغ جِلدٍ، وسائِس قرد، وراكب عَرْدٍ؛ دلّ عليهم هُدهدٌ، وغرَّقتهم فأرة، ومَلَكتهم امرأَة. فلئن كان خالدٌ قد فكَّر وتدبّر هذا الكلامَ إنه للرَّاوية الحافظ، والمؤلِّف المُجيد؛ ولئن كان هذا شيئاً حَضَرَه حين حُرِّك وبُسِط فما لَهُ نظيرٌ في الدنيا، فتأمّلْ هذا الكلامَ فإنك ستجده مليحاً مقبولاً، وعظيمَ القَدْر جليلاً، ولو خَطب اليمانيُّ بلسان سحبانِ وائل حَوْلاً كَرِيتاً، ثمَّ صُكّ بهذه الفَقرة ما قامت له قائمة. وكان أذكَرَ النَّاس لأوّل كلامه، وأحفظَهم لكلِّ شيء سَلَف من منطقه(البيان والتبين. للجاحظ.١/ ٣٣٩). وذكر صاحب العقد أن رجلا "قال لخالد بن صَفْوان: إنك لتَكْثر؛ قال: أكثر لضَرْبين، أحدهما فيما لا تُغني فيه القِلْة، والآخر لتمرين اللّسان، فإنَّ حَبْسه يُورِث العُقلة"(العقد الفريد لابن عبد ربه.). وواضح أن الإكثار هنا هو ذلك الإكثار المحمود، الذي لا يمله المتلقي. ولعل كلاما مثل الذي رواه الجاحظ تشرئب له الأعناق، وتتوق له الأنفس. وأشهد أني كلما ذكرت كلام خالد للطلبة، وإلا أعجبوا بالكلام، وطلبوا مني إعادته.

(١) ينظر البيان والتبين. للجاحظ. ١/ ١٧٠ – ١٧٣ – ٢٩٢ – ٣١٧ – ٣٣٩

أن يغير من مستوى خطابه. ومن ثم يكون تعريف خالد للبلاغة تحديداً للبلاغة في أرقى درجاتها. كما يحتمل أيضا أن يكون مقصوده بأن يكون لكل مقام بلاغته وفق ما سبقت الإشارة إليه سالفاً في الصحيفة الهندية. فيكون مقصوده وفق ما ورد في هذه الصحيفة؛ "ألا يخاطب الأمة بكلام سيد الأمة ".

ومسك ختام هذا المبحث الذي يدور حول بلاغة الخطاب بين المتلقي والمتكلم، تعريف متميز للبلاغة، سبق الحديث عن فقرات منه، وأورده هنا كاملا لأهميته.

"قيل لعمرو بن عُبيد: ما البلاغة؟ قال: ما بَلَغَ بك الجنّة، وعدَلَ بك عن النَّار، وما بصَّرَك مواقعَ رُشْدِك وعواقبَ غَيِّك. قال السائل: ليس هذا أريد. قال: مَن لم يُحسنْ أن يسكُتَ لم يُحسن أن يَستمِع، ومَن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول. قال: ليس هذا أريد. قال: قال النبي: إنّا مَعْشَرَ الأنبياء بِكَاءٌ. أي قليلو الكلام، ومنه قيل رجل بَكيءٌ، وكانوا يكرَهونَ أن يزيد منطِقُ الرجُل على عقْله. قال: قال السائل: ليس هذا أُريد. قال: كانوا يخافون مِن فِتنة القول، ومن سَقَطات الكلام، ما لا يخافون من فِتنة السكوت ومن سَقَطات الصمت قال السائل: ليس هذا أريد قال عمرو: فكأَنَّك إنّما تريد تخيُّر اللّفظ، في حسن الإفهام؟ قال: نعم. قال: إنك إنْ أُوتيتَ تَقريرَ حُجّة اللهَّ في عقول المكَلَّفِين، وتخفيفَ المَؤُونة على المستمعين،

وتـزيينَ تلـك المعـاني في قلـوب المريـدينَ، بالألفـاظِ المستحـسَنة في الآذان، المقبولـة عنـد الأذهـان، رغبـةً في سُرعـة استجابتهم، ونَفْـيِ الـشّواغلِ عـن قلـوبهم بالموعظـة الحـسنة، عـلى الكِتـاب والـسّنّة، كنْـتَ قـد أُوتِيـتَ فَـصلَ الخِطاب، واستوجبتَ على اللهَّ جزيلَ الثّواب"[1].

ولئن كان الشطر الأول من هذا النص قد بين أهمية السكوت والصمت وقيمتهما في صنع بلاغة الخطاب كما سبق القول، فإنه في الشطر الثاني منه قد أبرز أهمية بلاغة الخطاب من وجهة نظر التلقي، حتى وإن بدا من خلال ظاهر النص أنه يتحدث عن الخطيب/ المتكلم.

تبرز قيمة المتلقي في صناعة الخطاب البليغ، من خلال هذا النص، من الاستفهام الذي استفهم به عمرو بن عبيد السائل عن الذي يقصده من البلاغة، فقال: "فكأَنَّك إنّما تريد تخيُّر اللّفظ، في حسن الإفهام؟". وهذا التحديد الأولي يروم تبيان معيار "التخير"، ويحدده في "حسن الإفهام". ومعلوم أن "تخير اللفظ" من المصطلحات النقدية والبلاغية الأصيلة في تراثنا، إذ أنه قوام الإبداع، وعمود النقد، وأساس البلاغة. كما أن "اختيار

(١) البيان والتبين الجاحظ. ١/ ١١٤ – ١١٥. وينظر عيون الأخبار لابن قتيبة. ٢/ ٥٦٧ – ٥٦٨. وسبقت الإشارة إلى أن السائل هو حفص بن سالم، وهو وعمرو بن عبيد من أهل الاعتزال. وعمرو بن عبيد أحد كبار الزهاد المشهورين.

الألفاظ" يعتبر المحمر الأساسي الذي يدور عليه المنهج الأسلوبي في العصر الحديث حيث إن ما يعرف ب"البدائل الأسلوبية" [1] يقوم أولا وأخيرا على اختيار الألفاظ. وإذا كان "تخير اللفظ" عند عامة الأقدمين، و"اختيار الألفاظ" عند المحدثين يقوم أساسا على الذوق وطبيعة المبدع، فإن عمرو بن عبيد جعل معيار التخير في يقوم على الإفهام؛ أي ينطلق مما يتطلبه المتلقي من لفظ يسهل معه فهم المعنى وإدراكه، ولا ينطلق من ذاتية المتكلم الذي يمكن أن يلجئه ذوقه إلى اختيار ألفاظ بعيدة عما يتطلبه المقام من إفهام.

ثم يأتي في النص بعد ذلك تفصيل هذا المبدأ المؤطر لمعنى البلاغة، بإبراز جانبين كبيرين:

(١) ينطلق المحلل الأسلوبي من أن وراء كل استعمال لغوي عملية اختيار، ونستطيع أن ندعوها بعملية الغربلة. فأثناء الكتابة أو التعبير، نسمح لبعض العناصر اللغوية بالبروز على حين نمنع البعض الآخر ونقصيه من مجال اهتمامنا. ويتم الاختيار أو الغربلة على مختلف مستويات النص المعجمية والصوتية والصرفية والتركيبية، فالشاعر يؤثر كلمة على أخرى، أو تركيبا على آخر، أو صيغة صرفية على صيغة صرفية، أو وحدة صوتية على أخرى، وهكذا. وعلى المحلل الأسلوبي أن يركز على إبراز القيمة الأسلوبية لعبارة ما بالمقارنة مع البدائل الأسلوبية غير المكتوبة. (التحليل اللغوي الأسلوبي، منهج وتطبيق.) د. عبد الرحيم الرحموني ـ د. محمد بوحمدي. ص:٢١.

ـ جانب صياغة الخطاب من قبل البليغ المتكلم، يقوم على إطار مضموني يبدو في: تَقريرَ الحُجّة وتزيينَ المعاني، وإطار شكلي يتجلى في اختيار الألفاظِ المستحسَنة المقبولة، وجانب مقامي وظيفي يظهر في تخفيف المؤونة على المستمعين. على أن هذه الصياغة لا يكون فيها البليغ/ المتكلم حرا، بل عليه أن يراعي بالدرجة الأولى طبيعة المتلقي، إذ أن إقرار الحجة، وتزيين المعاني، والاستحسان والقبول يعكس مقام المتلقي، حيث إنه هو المستهدف من إيراد هذه الوجوه البلاغية، حتى ليبدو أن المتكلم مسؤول عن "نفي الشواغل" عن متلقيه، وكان المتلقي ليس هو المعني بحضور الذهن، بل المتكلم هو الذي ينبغي أن تكون له القدرة البلاغية على استمالته والتأثير فيه.

ـ جانب التلقي الذي يبدو في مدى إسهام المتلقي في صناعة جمالية الخطاب، ويبدو حضوره من خلال العبارات التالية: عقول المكَلَّفِين، المستمعين، قلوب المريدينَ، الآذان، الأذهان، استجابتهم، قلوبهم. ويبدو من خلالها أن المتلقي ينبغي أن يكون متصفا بمجموعة من الصفات التي تجعله أهلا للتلقي.

وأولى هذه الصفات أن يكون مكلفا إذ أن غير المكلف غير معني، في الغالب، بالخطابات البليغة، خاصة إن كانت من وزن خطابات عمرو بن عبيد.

وأما ثانيها فهي أن يكون مريدا، (واللفظ هنا بمعناه اللغوي العادي، وليس الاصطلاحي الذي عرف لاحقا عند الصوفية)، والإرادة في هذا السياق تعني أن يكون مقبلا على ما يقوله المتكلم بمحض إرادته، وتبعا لمستوى عقله وإدراكه، وليس مكرها على الاستماع.

ثالثها أن يكون متفهما لما يلقى عليه، والتفهم سمة أساسية في المتلقي، حيث إنه بقدر ما يكون المتكلم معنيا باستمالة السامع، يكون المتلقي مسؤولا عن تفهم ما يلقى إليه. ولذلك عُدّ حسن التفهم معيارا تكمل على أساسه جمالية الخطاب وتصنف على مقاسه عقول الرجال.

لننظر إلى النصوص التالية التي تبين أهمية المتلقي ودوره في استجلاء مضمون الخطاب وإظهار جماليته، عن طريق تتبع جزئياته، والوقوف عند مكامنه، وتبين دقائقه:

"ذكر الشَّعبيُّ ناساً فقال: ما رأيتُ مثلَهم أشد تنابُذاً في مجلس، ولا أحسَنَ تفُّهماً عن مُحدِّث.

ووصف سهل بن هارون رجلاً فقال: لم أر أحسَنَ منه فهماً لجليل ولا أحسن تفهُّماً لدقيق.

وقال سعيد بن سَلمٍ لأمير المؤمنين المأمون: لو لم أشكر اللهَّ إلاّ على حُسن ما أبلاني في أمير المؤمنين، مِن قصدِه إليَّ بحديثه، وإشارته إليِّ بطرفه، لقد كان ذلك مِن أعظم ما تفرضُه الشريعة، وتوجِبُه الحُرّية، فقال المأمون: لأنَّ أميرَ المؤمنين يجدُ عندَك من حسن الإفهام إذا حدّثت،وحسن التفهُّم إذا

حُدّثتَ، ما لم يجِدْ عند أحدٍ فيمن مضى، ولا يظنُّ أنه يجده فيمن بقي. وقال له مرة أخرى: واللهَّ إنك لتستقفِي حديثي، وتقِفُ عند مقاطع كلامي، وتُخْبِر عنه بما كنت قد أغفلتُه.

وقال أبو عقيل بن دُرُسْتَ: نَشاط القائل على قدر فهم المستمع.

وقال أبو عبّاد: إذا أنكرَ القائلُ عَيْنَي المستمع فليْستفهمْه عن مُنتَهى حديثه، وعن السبب الذي أجرى ذلك القولَ له، فإنْ وجدَه قد أخلص له الاستماعَ أتَمَّ له الحديث، وإن كان لاهياً عنه حَرَمه حُسنَ الحديث ونفْعَ المؤانسة، وعرَّفه بفسولة الاستماع، والتقصير في حقِّ المحدِّث. وأبو عبَّاد هذا هو الذي قال: ما جلس بين يديَّ رجلٌ قطّ إلا تمثَّل لي أنِّي سأجلس بين يديه...

وذمَّ بعضُ الحكماء رجُلاً فقال: يَحْزِم قبل أن يَعلم، ويغضب قبل أن يَفهم.

وقال عمر بن الخطاب رحمه اللهَّ في بعض رسائله إلى قُضاته: الفهْمَ الفهمَ فيما يتلجلج في صدرك، ولا يمكنُ تمامُ الفهم إلاّ مع تمام فراغ البال"[1].

وعلى هذا الأساس فإن بلاغة التلقي أرقى وأسمى من كل أنواع البلاغات الأخرى، لأنها ترتبط بالعقل، وتترجم مستواه، وتبين مقداره.

(١) المصدر السابق. ٢/ ٣٩ – ٤١.

غير أن عمرو بن عبيد في تعريفه للبلاغة وتقليبه لمعنى السؤال على وجوه عدة، وتدرجه من البلاغة التي تبلغ صاحبها الجنة، إلى البلاغة التي تتأسس على حسن السكوت ثم على حسن الاستماع لتصل إلى حسن القول، ثم إلى بلاغة قلة القول التي تتجنب الفتنة بكثرته، ليصل إلى بلاغة الإفهام، يشير إلى شيء مهم في حقيقة البلاغة، مؤداه أن يريد من البلاغة ألا تنحصر في فن الصياغة الشكلية للقول، فيعتنى بتجميله وتنميقه، ليحدث أثراً فنياً شكلياً محدوداً يرتبط فقط باللحظة الآنية التي يتم فيها الاستماع، ولكن يريد من البلاغة أن يمتد أثرها إلى تفهم ما تحمله هذه البلاغة وتمثله حق التمثل حتى يصير فعلا مطبقا، وحتى لا يفتن بالجمالية الشكلية للقول. ولهذا حاول أن يربط السائل منذ الوهلة الأولى بالبلاغة التي تؤدي إلى الجنة، ثم إلى حسن الاستماع الذي يؤدي إلى التدبر والتأمل اللذين يؤديان أيضا إلى الجنة وينجيان من النار، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١) لينتهي إلى أنه حتى في حالة بلاغة القول، فإن قمتها هي التي تؤدي إلى "تَقرير حُجّة اللهَّ في عقول المكَلَّفِين"، وتكون "بالموعظة الحسنة،على الكِتاب والسّنّة"، حتى يستوجب المتكلم البليغ "على اللهَّ جزيلَ الثّواب"، أي الجنة، ويؤتى ما أوتي النبي داود عليه السلام من فصل الخطاب. وهذا يعني أن عمرا كان في أجوبته يحاول أن يربط

(١) سورة الملك. الآية ١٠. قال ابن كثير في تقسيره لهذه الآية: " لو كانت لنا عقول ننتفع بها، أو نسمع ما أنزله الله من الحق، لما كنّا على ما كنّا عليه من الكفر بالله والاغترار به، ولكن لم يكن لنا فهمٌ نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم._(تفسير ابن كثير).

السائل ببلاغة الفعل أكثر من بلاغة القول، حتى يكون البليغ قدوة في فعله قبل أن يكون قدوة في قوله.

وهكذا يبدو من خلال ما تم إدراجه من نصوص ذات صلة بتعريف البلاغة في هذا البحث، أنها تركز بشكل كبير على ما للمتلقي من دور أساسي في الصناعة الجمالية للخطاب. إلى درجة أنه يعتبر شريكا للمتكلم يتقاسم معه المسؤولية مناصفة "وكلما كان اللسان أبين كان أحمد ، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد. والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل"(١) و"إذا لم يكن المستمعُ أحرصَ على الاستماع من القائل على القول، لم يبُلغ القائلُ في منطقه، وكان النُّقصان الداخلُ على قوله بقدْر الخَلَّة بالاستماع منه"(٢). ومن الأكيد أن تتبع النصوص التي لها علاقة بالبلاغة عموما ستفضي إلى استخلاص جوانب أخرى مهمة تتعلق بموضوع التلقي. ومن يدري فقد يكون جمع هذه النصوص ودراستها يؤدي إلى صياغة جديدة للبلاغة العربية، وبناء نظرية أو على ا لأقل مفهوم للتلقي عند العرب.

(١) البيان والتبين للجاحظ. ١ / ١٣٦.

(٢) المصدر السابق. ١ / ٣١٥

المصادر والمراجع المعتمدة:

- أخلاق الوزيرين. أبو حيان التوحيدي. تحقيق محمد بن تاويت الطنجي. دار صادر بيروت. ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
- أسرار البلاغة . عبد القاهر الجرجاني. تحقيق هـ. ريتر. دار المسيرة. بيروت ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م.
- الإمتاع والمؤانسة. أبو حيان التوحيدي . صححه وضبطه وشرح غريبه: أحمد أمين وأحمد الزين. منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت . لبنان.
- البيان والتبيين. الجاحظ. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. المجمع العلمي العربي الإسلامي، الطبعة الرابعة – بيروت.
- تاج العروس. الزبيدي. المطبعة الخيرية بمصر. الطبعة ١. ١٣٠٦هـ.
- التحليل اللغوي الأسلوبي: منهج وتطبيق. عبد الرحيم الرحموني و محمد بوحمدي.مطبعة أنفو برانت ـ فاس .١٩٩٤م.
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير الدمشقي. دار الفكر . بيروت لبنان.
- التعريفات. الشريف الجرجاني . المطبعة الخيرية مصر. ١٣٠٦ هـ.
- الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. دار إحياء التراث العربي. بيروت. لبنان. عام ١٩٦٥ هـ– ١٩٦٦م.
- الحيوان. الجاحظ. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي – بيروت – لبنان – الطبعة الثالثة. ١٣٨٨هـ
- دراسات أسلوبية في التراث. عبد الرحيم الرحموني و محمد بوحمدي.مطبعة أنفو برانت ـ فاس ٢٠٠٥.
- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار. محمد بن عمر الزمخشري. تحقيق د. سليم النعيمي. مطبعة العاني. بغداد.

- رسائل ابن حزم. تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى.
- السيرة النبوية. ابن اسحاق تحقيق وتعليق محمد حميد الله. نشر معهد الدراسات والأبحاث للتعريب.
- السيرة النبوية. ابن هشام، قدم لها وعلق عليها وضبطها طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت ١٩٧٥م.
- شرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. تحقيق الشيخ حسن تميم. دار مكتبة الحياة. بيروت. ١٩٦٣م.
- صحيح ابن حبان. تحقيق شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة . بيروت
- صحيح مسلم. المطبعة المصرية
- كتاب الصناعتين . أبو هلال العسكري. تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل. عيسى البابي الحلبي وشركاؤه. ١٩٧١م.
- الفروق في اللغة. أبو هلال العسكري دار الآفاق الجديدة بيروت. ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.
- العقد الفريد. ابن عبد ربه الأندلسي. ت.أحمد الزين – إبراهيم الأبياري. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة ١٣٧٥ هـ– ١٩٥٦م.بيروت. لبنان.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . ابن رشيق القيرواني. تحقيق محمد قرقزان. مطبعة الكتاب العربي. دمشق. ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.
- عيار الشعر . ابن طباطبا العلوي، بتحقيق وتعليق الدكتور طه الحاجري والدكتور محمد زغلول سلام ١٩٥٦م.

- كشاف اصطلاحات الفنون. التهانوي. .تحقيق د. لطفي عبد البديع. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة. طبع مكتبة النهضة المصرية. مطبعة السعادة. ١٣٨٢هـ ١٩٦٣م.
- الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. أبو البقاء الحسيني الكفوي قابله على نسخة خطية وأعده للطبع ووضع فهارسه الدكتور عدنان درويش – محمد المصري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق. ١٩٧٥م.
- لسان العرب ابن منظور، دار صادر – بيروت.
- مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبين للجاحظ. الشاهد البوشيخي، دار الآفاق الجديدة، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة. ابن قيم الجوزية.
- المفردات في غريب القرآن. لراغب الإصهفاني. تحقيق محمد سعيد كيلاني. مطبعة البابي الحلبي. ١٩٦١م.
- مقاييس اللغة. ابن فارس. تحقيق عبد السلام هارون. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة. ط١. ١٣٦٦هـ - ١٣٧١م.
- موطأ مالك بشرح الزرقاني. محمد عبد الباقي الزرقاني. المطبعة التجارية الكبرى.
- نحو جمالية التلقي. هانس روبرت ياوس. ترجمة وتقديم : د. محمد مساعدي. مطبعة الأفق. فاس.
- نضرة الإغريض في نصرة القريض. المظفر بن فضل العلوي. تحقيق نهى عارف الحسن. دار صادر بيروت.